نهاد شريف

الذى تحدى الاعصار

قصص علمية



الذى تحدى الإعصار

قصص علميـــة

نهـــاد شريف



١٩٨١

إهـــداء

منذ صباى وموضوع « الخوارق » يستحوذ على مشاعرى ضمن عديد من الاستحواذات الأخرى . ويثير فى أعماق كما مهولا من الأسئلة والاستفسارات .. وإن ظلت غالبية تساؤلاتى — وإلى يومنا — بلا إجابات شافية مقنعة .. وبالتالى أضحت تتأرجح بين القبول المتوجس والرفض المشوب بالضيق والأسف.. لكن الموضوع برمته لم يخل أبدا من لمسات انبهار .. ومن إيقاع مريح يبهج حين احول تساؤلا ما إلى عمل فنى .. إلى قصة أو رواية .. يشاركنى فى معايشة أحداثها غيرى من قرائى ... ورغم أن « الخوارق » قد أصبحت الآن هدفا للفحص والاستقصاء، ومحورا لاهتمام مركز من جمهور الباحثين والدارسين وغالبية المثقفين وليس العامة

وحدهم .. بل وحتما ستصبح « الخوارق » – فى القريب – علما يعترف به ويقدر ...

إلا أنها – فى الماضى البعيد – كانت شيئا موجودا بالفعل .. يمتلك أسراره أجدادنا منذ دب أول إنسان على الأرض وإلى زمن ليس بالنائى حيث عاش أولئك الذين لم يرفه العلم حياتهم ولم تقطع التكنولوجيا المتطورة صلتهم بأسرار قواهم الخفية روحية كانت أو جسدية أو معنوية ...

لكن هل لدينا فرصة حقا لنعيد اكتشاف دنيا « الخوارق » من جديد .. فنضع – عن طريق العلم وكما يجب أن يكون – إجابات طال الافتقار إلى معرفتها ؟ وهل يتحقق ذلك على يدى كائن بشرى من سكان أرضنا أم أن الفاعل سيكون كائنا قادما من كوكب آخر ؟

وبالمناسبة .. فحقيقة تواجد جيران لنا . . من كائنات الله وخلقه .. على ثرى مجرتنا « سكة التبانة » أو كواكب مجرات غيرها دانية أو قصية .. احتمال قائم ومعقول لدى تماما .. وكافة الكتب السماوية وأولها القرآن الكريم تشير إلى ذلك وتعلنه .. لكن الذى يحرك فضولى وحيرتى حول هذه الكائنات هو مدى التشابه أو الاختلاف فى التكوين والشكل وجوهر الحياة وظروف البقاء والاستمرار وكيفية التفكير والتصرف الخ الخ لديهم عما عهدناه وألفناه فى مخلوقات كوكبنا الأرض ...

ثم – والأهم - فهل هم مثلنا ميالون – ولا أقول مغرمون – إلى تدمير أنفسهم ومخلوقات كوكبهم وإشاعة الرعب والفناء فيما حولهم وقد يمتد ذلك إلى خارج كوكبهم ؟

وسؤال لاهث يستفزنى .. ترى أية قوى أو وسائل علمية متقدمة جدا تتفوق بها هذه الكائنات علينا .. بدليل عبورها أنحاء الكون وقطعها للمسافات الخرافية بين شموسه وكواكبه بسفنها الرائعة التى نسميها نحن « الأطباق الطائرة » ؟

ومن دراساتى فقد تخيلت كائن الفضاء الأكثر تحضرا بأنه كائن ضامر الجسد ضامر الأطراف أو يستخدم أطرافا صناعية مثلها مثل غالبية أعضاء جسده الداخلية : كالقلب ، الرئتين ، الكبد ، الطحال ، وغيرها – إن وجدت على نحو ما – فهى صناعية كذلك .. وبقى فى هذا التصور شىء واحد جعلته غير صناعى وغير ضامر .. وإنما هو تام .. وكبير ومثير وخطير . . إنه المخ . . وأيضا الرأس كوعاء للمخ .. وهكذا فالكائن الوافد إلينا نصف حجمه الكلى رأس ضخم يحوى مخا بالغ الذكاء ...

وهنا يولد سؤال مقلق .. فهل مخ إنسان الأرض – ونحن منه – فى الطريق إلى مثل هذا التطور الحاد – ضمورا فى الجسد والأطراف ونموا فى المخ فقط – وهل هناك علامات على ذلك ؟ لكن قبل أن نخوض فى أسئلة كثيرة مضنية ومتشعبة والإجابات

عليها معقدة . فهل فتشنا فى مجاهل وأحراش ذلك العضو الهلامى المكون من نحو ١٤ ألف مليون خلية شبه كهربائية .. هل فتشنا فى المخ البشرى – وهو فى متناول يدنا – وتوصلنا إلى معرفة كل أسراره وخفاياه ؟

أبدا إن دون ذلك مشاق ومخاطر وأعواما تتلوها أعوام .. والأبحاث رغم تطورها السريع فان موضوعاتها جد شائكة وجد عسيرة .. ثم ان نظرية « التفوق المخى » لدى البشر تهدم باصرار من أساسها .. فعملا برغبة الإنسان الدفينة فى هدم نفسه بنفسه تتالى الابتكارات المفزعة لتحقق ذلك سواء فى الحرب أو فى السلم .. وآخر الصيحات هى مولد الحاسبات الالكترونية الآخذة فى النمو والتطور باقتدار مذهل متلاحق .. ويقال أن الحاسبات ستكون المعول الذى يقدمه الإنسان بيمينه ليهدم به تفوقه المخى ويسحقه سحقا ...

هذه بعض من تساؤلاتى يؤججها وقود فكرى وأحاسيسى وتأملاتى المستقبلية .. ولطالما ارتجف قلبى وارتعش قلمى .. وآخذ منى اليأس والقنوط مأخذه .. خوفا وإشفاقا على مصير الإنسان الذى يأبى إلا أن يدمى كوكبه بالجراح القاتلة .. ومادرى .. أنه وكوكبه ليسا إلا مجرد ذرة هباء فى كون فسيح فسيح لا نهائى ...

هذه نماذج من أفكارى .. من شطحات مخيلتى .. من صرخاتى

أو صراعاتى الحبيسة.. التى طالما احتضنها ورعاها وما يزال الكثيرون من رفقاء صباى ومراحل دراستى – وإلى وقت كتابة سطورى هذه – فى شجاعة وصبر وحب كبير .. وكل أسهم معى فى كلمات كتبتها . . لكن أبدا ليس بالقدر الذى اسهمت به جدتى لوالدى .. السيدة الوقور التى طالما أخفى الحجاب قسمات حلوة باسمه من وجهها والتى طالما حوت جعبتها أكثر القصص إثارة وأشدها غرابة وعجباً . . من مصباح علاء الدين إلى رحلات السندباد وأساطير الجنى والبساط الطائر والحيوانات المتكلمة والبلورة المسحورة والحجارة الناطقة الخ الخ . . وإنى لأتخيلها الآن تتشح بشالها الموشى الحواف وهى تقص على بصوتها الهادىء العميق وقد استكنت إلى حضنها طفلا فى الرابعة أو الخامسة تنسال أمامه دنيا فسيحة من الخيال والأحلام والرؤى المدهشة . . .

فإلى أول من أيقظت أحاسيسى وشاركتنى بذكاء واقتدار أحلامى : . وشجعتنى عليها . . . إلى المرحومة جدتى لوالدى . . أهدى كتابى .

نهـــاد

لقاء مع حفيدة خوفو

ـ غرباء هؤلاء .. بالطبع ...

ـ بالطبع ...

ـ أسائحون هم ؟

ـ يقولون انهم علماء .. منقبون ...

دهشت : هنا فى بلدتنا ؟ .. لكن عن ماذا يبحث المرء . . إن المنطقة ثبت خلوها من الآثار ومن أى شئ مهم ...

أطرق محدثى الشاب يتحاشى أشعة الشمس التى تلهب عينيه ...

ـ لقد جاء فى رسالة عمى ....

تساءلت : عمك ؟؟

ـ أجل فمنذ قصدونا رأسا أول الأمس ومعهم تلك الكلمات

من عمى السكندرى عز الدين.. ونحن ننفذ توصيته بإيوائهم فى دارنا .. ورعايتهم .. حتى يتموا استكمال مؤنهم .. ثم يأخذون بعدئذ طريق الصحراء فى اتجاه التلال شرقا ...

رددت : تلال الشيخ واكد البنفسجية ...

— تماما .. وكما تذكر رسالة عمى.. إنما قدموا من أجل البحث عن معدن لم يحددوا كنهه ...

— آه .. هم جيولوجيون إذا .. كم عددهم ؟

— خمسة رجال وامرأة ...

— أمريكيون ...

— لا ... نفظها قاطعة ...

— لكن السيارتين أمريكيتا الصنع ...

قال فى إصرار : دايل واه . . فهم لايتحدثون الإنجليزية .. كما أنهم ليسوا فرنسيين .. ولا يلفظون أية لغة معروفة لدى .. بل انهم نادروا الكلام يؤثرون الصمت على الأقل أمامى وأفراد أسرتى .. إلا الفتاة ... وطوح بأنفه فى اتجاهها بينما كانت ترنو من شرفة دارهم العلوية عبر الشارع الصاعد ... انها الأنثى الوحيدة بينهم إنهاتجيدعربيتنا بنغمات حادة تخرج من بطنها..أرصدرها...

رفعت وجهى تجاهها بدورى : لقد اسكنتموهم الطابق العلوى..

— تركناه لهم .. وحدهم ...

.. عدت إلى موضوعنا الأول وأنا أبدى تعجبى : أو لم يسأل أحد عن الجنسية التى ينتمون إليها ؟

هز رأسه : وفيم يهم ذلك .. انهم منطوون .. قليلو الحركة .. ينشدون الوصول لغرض بعينه .. واما دارنا فهى مجرد محطة فى طريق رحلتهم ...

وهبط إلينا صوت رفيع كأنه آت من بئر سحيقة وليس من عل ..

– عبدون .. تعال ...

لكنى أمسكت الشاب بسؤال مباغت قبل أن يلبى نداءها ...

– لم تقل لى متى سيرحلون عبر الصحراء ...

على انه تملص من قبضتى تاركا ثلاث كلمات ... ربما بعد ليلتين ...

• • •

الناس عادة يأخذون أجازاتهم السنوية صيفا.. لكنى أحددها دائما شتاء .. فيما بين شهرى ديسمبر وفبراير من كل عام .. حيث الدفء المناسب فى بلدتى مسقط رأسى « محلةدوم » جنوب الاقصر بعشرين كيلومترا .. وقد بكرت هذا العام فوصلت دار أبى يوم الأول من ديسمبر .. دون أن أهتم هذه المرة بإخطارهم مسبقا بموعد الوصول فقد كنت فى عجلة من أمرى .. أولست

موشكا أن أخطر عائلتى بعزمى الزواج من زميلة الدراسة وبعدئذ رفيقة عملى بمستشفى دار الشفاء .. الطبيبة أمينة ...

وكما توقعت فقد سعد أبى باختيارى .. وعمت الفرحة أمى واخوتى ..وراحوا يتبادلون صورة أمينة الفوتوغرافية التى جلبتها معى ويثنون على ملاحتها وعلى نظرتها الجادة وأنفها الذى ينطق بالكبرياء رغم رقة انحنائه ...

وقد أزمعت السفر فى اليوم الخامس على مقدمى للبلدة لأسارع بالعقد على عروسى .. و من ثم أحضرها لتمضى بقية أجازتى وسط ماعرف عن عائلتى من كرم ودماثة لابد سيفعمان قلب أمينة بأقصى درجات الرضا .. لكن التعطل لحق خط السكة الحديد الفردى الذى يربط بلدتنا المنسية بجنوب الأقصر.. وقد حدث التعطل مع مقدم الغرباء فى وقت واحد ...

كنت أقف وبصحبتى جارنا الحاج حسنين قرب حافة الرصيف الحجرى المشرف على آخر القضيبين الحديديين المتوازيين .. ويطل أيضا على الميدان الذى ينهى الطريق المترب الموازى لمسار السكة الحديد .. حينما أقبل القطار يجر عربته الرمادية الوحيدة .. وبغتة.. وسط عاصفة من الغبار .. اتضحت فيما وراء جسم القطار سيارة جيب خضراء تندفع فى أعقابها سيارة مقفلة ضخمة باهتة الازرقاق ..

حين توقفت الجيب برز منها أربعة رجال طوال عراض وفتاة نحيفة قصيرة بعض الشىء .. أما السيارة المقفلة الضخمة فلم تكن

تحمل فيما يبدو للعيان غير سائقها والذى يماثل أقرانه طولا وعرضا بل وملامح ...

على الفور لاحظت رغم بعد المسافة ما يشوب وجوه الغرباء الستة من جمود وما يعترى بشراتهم من بياض مصفر يحاكى بياض الشمع .. كما لمحتهم يضعون بلا استثناء عوينات سوداء متسعة أخفت عيونهم وموهت جوانب من قسماتهم ...

فلما جلست فى القطار لم أكن أدرى أننى سأغادره من نفس موقفه بعد ساعه دون أن يتحرك بى بوصة واحدة .. ولم أكن أظن كذلك أنى لن أرحل بعيدا طيلة أيام عشرة تالية على الأقل إلى ما هو أبعد من الأقصر شمالا . . .

غير أنى حين رجعت إلى دارى كنت قد نسيت كلية حادثة قطار البضاعة الذى انقلب فى منتصف المسافة بين بلدتنا ومدينة الأقصر فأدى إلى شلل الخط بأكمله.. كما نسيت ملل الانتظار وخيبتى لتأخر سفرى إلى الخطيبة المتلهفة إلى لقائى . .. . فقط رحت أقلب وأتفحص الاحتمالات التى تدعو غرباء إلى التوافد على بلدة لم تعرف فيما عدا سكانها القليلون إلا ندرة من المنقبين عن الآثار أجروا محاولاتهم قديما . . .

وعبر ديار ثمان يضمها الدرب الصاعد سهر بصرى تلك الليلة يترقب أقل بادرة تصدر عن الرجال الخمسة والفتاة . . لكن فيما عدا شبحى السيارتين الجاثمتين تحت أفرع شجرات

الجميز لم يكن يشوب المنطقة غير السكون المطبق المثير . . .
لاشي يلفت الانتباه بطول الدرب الضيق والبيوت القابعة على يساره . . ولا على رصيف القطار شرقا والميدان يلاصقه ومن خلفهما التلال البنفسجية تنصب غامضة مخيفة وسط غلالات من الضباب تخفى هاماتها . . حتى صفحة المصرف الضاربة تحت لمسات شعاع قمر تآكل نصفه بدت وكأنها قد توقفت عن الجريان . . .

ولولا شبحى السيارتين لظننت مقدم الغرباء وهما كبيرا يعبر خيالى . . .

بل إن حديثى مع عبدون عن ستتهم لدى تقابلنا عقب صلاة الظهر فى اليوم التالى لم يشبع فضولى وإنما زاده اشتعالا وتأججا . . فهل حقا قد أقبل هؤلاء سعيا وراء معدن تأويه الصخور فى مكان ما بالتلال المطلة علينا . . .

ومن المبدأ فاننى لم أسترح لمرأى سحناتهم الشمعية الجامدة . . ولم أسترح لما تخفيه السيارة الضخمة فى جوفها . . وأما مبررات رسالة عم صديقى عبدون فهى غير مستساغة وغير منطقية . . وإن جهلت سبب أحاسيسى هذه . . .

كنت أدور حول الحديقة الخلفية لدار عبدون تلفنى دوامة أفكارى حينما تسلل إلى أذنى صياحها . . .

— أنت . . من فضلك . . .

أدرت رأسي : . تحت شجرة الجميز المحنية واجهتني السيارة الجيب منزوعة الغطاء . : وخلف عجلة قيادتها كانت الفتاة تقف وقد عقدت ذراعيها واستندت إلى حاجز الزجاج الأمامي للسيارة . . وأما ثغرها فكان يفترعن ابتسامة مشجعة . . .

اقتربت : تقصدينني ؟

رفعت حاجبا رفيعا ليصدر الصوت بعيدا من جنبها : وهل هناك غيرك ؟

اعتراني الخجل : لا . . فعلا . . ثم أضفت وأنا أضع يدي على مقدمة الجيب . . .

ـ طلبات الآنسة . . .

انحنت تفتح الباب الواطيء على يمينها : إن لم يكن لديك مانع تفضل : . .

ـ ألا أعرف أولا إلى أين تأخذينني ؟

ـ سوف تعاونني في شراء أدوات تحتاجها الرحلة .. من الأقصر . . .

ـ أعاونك . . .. أنا . . .

تفرست في وجهي نافدة الصبر : عبدون قال إنك لن تعترض : ..

ثم جذبتني من ذراعي في غير كلفة . . تعال . . . اركب . .

وفى الطريق والهواء الفاتر يلفح وجهى لاحظت أن بشرتها لم تكن فى مثل الجمود والقسوة التى تخيلتهما عليها من قبل . . ورغم جحوظ مقلتيها وتوقف جفونها عن الحركة كما خيل إلى فقد بدت عيناها متسعتان ساحرتان من خلف زجاج العوينات القاتم . . على أن الشيء الذى حيرنى للغاية كان مصدره ثدياها الناهدان وقد برزا بين كتفيها يرتجان مع رجات السيارة دون أن تبدو أقل بادرة عن أن أنفاسا تتردد من تحتهما . . .

وفى عاصمة مصر العليا انصب اهتمام رفيقتى على اقتناء مجموعات من الحبال تميزت بالرفع والمتانة . . كما ألحت فى البحث عن نوع من الشحوم فلما لم تجده اشترت بدلا منه صفيحتين كبيرتين من السمن الصناعى ودفعت فيهما بسخاء . . .

أخيرا توارى قرص الشمس وسط بحر الصحراء الغربية .. فأوقفت سيارتها قبالة واحد من الكازينوهات المتراصة بامتداد كورنيش النيل العتيد . . .

ــ والآن من حقنا أن نحصل على بعض الترفيه مقابل ساعات اللف والدوران الشاقة . . . قالتها ثم قفزت من السيارة فبدا جسدها وهو يستقر على الأرض الحجرية كأنه قوام مطاطى . . يخلو من العظم كلية . . .

تصنعت الاعتراض وأنا أقفزبدورى وراءها : لم تكن شاقة بمعنى الكلمة . . .

عندئذ دفعت بذراعها حول وسطى وجذبتنى فى حماس وقد فاح عطرها شجيا يحتوينى : بل كانت ساعات مرعبة .. بمثل هذه الوسيلة المتأخرة جدا للانتقال . . وتسمونها سيارة . . .

تعجبت : وهل لديك غيرها ؟

لم تجبنى وإنما قادتنى إلى أكثر الأماكن إظلاما بداخل الكازينو وأبعدها عن حلبة الرقص وضوضاء السائحين الذين تتزاحم جماعاتهم فى هذا الوقت من كل عام .. فلما انتقيت كرسيا يقابل جلستها المطلة على مياه النيل أسفلنا هبت تدنى كرسيها إلى جوارى لتجلس ملاصقة لى وقد احتضنت ذراعى بين ذراعيها وأراحت رأسها وهالة شعرها الأسود كالليل على كتفى . . .

وهكذا عاجلا .. أسكرنى عبيرها وارتماؤها المفاجىء على .. وشعورى بطراوة لحمها وتآلف روحها مما لم أجربه قبلا . . لكنى تأكدت توا أن لا أنفاس لها إطلاقا . . .

قلت ووجهى يغوص بأكمله فى شعرها : تصورى . . . لم أعرف أسمك بعد . . .

جاءنى ردها ناعسا : وفيم يفيدك . . والفرقة محتمة بيننا . . .

– الاسم مفتاح للشخصية . . أو هو على الأقل فاتح أكيد لشهية الذاكرة . . .

رفعت عويناتها إلى وجهى دون أن تترك ذراعى : يدعوننى يمى ...

قلت أستدرجها للمزيد : نغم هندى بديع ؟ ..

ــ لست هندية . . .

ــ تكونين باكستانية . . أو أندونيسية . . .

تمتمت مداعبة : لقد بعدت كثيرا . . ومع كل فلتختر لى ولاسمى الجنسية التى تروق لك . . . . . . ثم عادت لغموضها وهى تضيف . . أجل فالأمر سيان . . .

على أننى لم أكن لأهزم بسهولة فأبعدتها عنى برفق بينما شراع عال يعبر فى سكون على مقربة منا . . .

ــ ألا يثير الدهشة أن تكتمينى معلومات أولية عنك . . بينما .. ها أنت بين ذراعى . . .

كسا وجهها قناع من الجمود . . خيل إلى رغم العتمة أن مسحة من ألم وحزن اجتازت قسماتها . . .

وعضت على شفتها : هناك من الأمور مايتحتم تجاهلها . . أو نسيانها . . .

ــ أنا آسف . . .

رفعت حاجبيها فى دهشة حقيقية : علام ؟

ربت على خدها : يبدو أننى ضايقتك بإلحاحى . . .

عادت تتشبث بذراعي وتلتصق بي في عنف : المهم أن نغتنم الفرص . . ما أقلها في الحياة خاصة لأمثالي .. فنعيشها بمرهف مشاعرنا ودافق عواطفنا . . المهم أن يعتصر المرء كل لحظة هناء قبل أن تتوارى . . بلا عودة . . .

أحسست المرارة أيضا في نبرة صوتها فمددت أصابعي أمسح على شعرها في حنان . . ثم على أذنها . . فكتفها . . حتى استقرت فوق ظهر يدها القابضة على ذراعي . . ووجدت بشرتها وجلد يدها متيبسا مثلجا . . . . وهكذا بلا أنفاس .. ولا دفء يشيع منها . . خيل إلى أن لصيقتي جثمان غادرته الروح منذ ساعات . . .

تسربت الكلمات من فمي دون رابط : ذكرتني بأمينة حين تستسلم لأحزانها . . وإن بدوت أنت أكثر تعاسة وانغماسا ...

— من تكون ؟

— أمينة ؟ آه . . ستصبح زوجة لي خلال أيام . . .

طوحت هالة الشعر وراحت تتأملني من خلالها : لديها حظ .. ترى فهل تضاهيك في ملاحة القسمات . . . . ثم أردفت بسرعة .. لابد أن يكون اختيارك موفقا . . .

قلت بينما أدفع صورة أمينة تحت بصرها : إليك صورتها لتحكمي بنفسك . . .

على أن عينيها ما كادتا تلمحان المشهد الفوتوغرافي حتى اجتاحها نوع من الانزعاج بدا شديد الوضوح عليها . . .

اختطفت الصورة وأخذت تحدق فيها وكأنها تهم بالولوج إلى داخلها . . .

لحقني فزعها : أى خطأ فيما ترين ؟ ؟

كان وجهها قد امتقع حتى أصبح بلا لون عندما همهمت فى ضعف . . .

— إنها . . هى . . .

— من

— أميرتنا . . . . . هيسكا . . .

— قلت من ؟

لكن لم تكن هناك إجابة بالمرة . . فقد امتدت أذرع صفراء متحجرة قبضت على رسغ الفتاة بوحشية . . فى حين دوت صيحة عالية مبهمة . . صيحة من نار ربما عنت الكف أو الصمت . . .

وبينما أستجمع شتات ذهنى انطلق الجسدان العملاقان يسحبانها تحت الباكية الممتدة إلى باب الخروج دون أن تبدى اعتراضا . . وفى سكون رفعاها إلى سيارتهم الجيب .. ثم سرعان ماتلاشى كل أثر للسيارة بركابها بطول الكورنيش المزدحم .. بالسيارات وعربات الحنطور والأجساد المتراصة بهدف أو بلاهدف . . .

* * *

أقسم لو رآنى أحد فى وقفتى هذه ـــ وقد لويت فى غل عنان جوادى الأشهب . . أشرئب مسمرا متحفزا من أعلى الهضبة الحرداء ـ لقرأ الغضب والقسوة ينطبعان غائرين على وجهى.. فقد قررت . . فجر .. اليوم التالى لأحداث الكازينو بالأقصر ودون روية أو تقدير للعواقب.. أن أتعقب الغرباء خلال رحلتهم المريبة عبر دروب التلال لأكتشف سرهم . . يدفعنى إحساس مسيطر بالشك والتوجس إزاء كافة ما صدر عنهم منذ ظهورهم ببلدتنا . . ولم يطل انتظارى فمع تسلل أولى خيوط الضوء شرقا لمحت السيارتين تتقدمان صاعدتين الوادى تحتى ببطء كما قدرت...

ومن ثم بدأت المطاردة الصامتة . . هم فى سيرهم المتعثر بالوادى وأنا هنا فوقهم أتقدم على ظهر جوادى بمحاذاتهم . . مترا وراء متر وبوصة بقدر بوصة . . وقد توقفوا أكثر من مرة لدى تشعبات الوادى . . وكان أحدهم ويتميز بطاقية برتقالية ـ فكلهم فيما عدا الفتاة يتشابهون فى نماذج وألوان أرديتهم الخاكية فلا تختلف غير أغطية الرأس ـ أقول شاهدت الرجل ذا الطاقية البرتقالية يغادر « الجيب » . . ويتقدم الجماعة ببضعة أمتار .. ويشهر جهازا أطلت منه زوائد أو أسلاك خمنت أنه يستخدمه لتحديد اتجاههم على ما يبدو . . .

واستمر تقدم السيارتين زهاء ساعتين عبر مزالق وعرة . . وأنا أتتبعهم حثيثا من أعلى الهضبة الحرداء الهابطة سفوحها إلى [

الوادى . ووصلوا . . ووصلت معهم فى النهاية إلى تلال الشيخ واكد البنفسجية . . .

وسلكوا ممرا ضيقا بين تلين شاهقين . . .

واضطررت للتعجيل بالهبوط والسير فى أعقابهم بالوادى .. وأنا أسحب جوادى الأشهب ورائى دون ما حاجة لامتطائه .. ثم بغتة فيما وراء منحنى حاد توارت السيارتان . . فلما حاذيت المنحنى بدورى لم أعثر لهما على أقل أثر . . .

غير معقول . . فهل انشقت الأرض وابتلعت السيارتين بمن فيهما . . .

بلغ غضبى ذراه . . وفى حمى يشتعل بها كل كيانى اندفعت أقفز بالجواد المسكين بعد أن امتطيته ثانية . . باحثا منقبا وسط الصخور العملاقة والشقوق الغائرة التى تمتلىء بها بطون التلال وسفوحها . . .

وجاءنى الترتيل خافتا منغما متماوجا .. يتسرب من أعماق غار أخفته تبة مستعرضة وشراذم من الصبار وشجيرات المر الصحراوية . . وخلف التبة وجدت السيارتين . . ساكنتين .. خاليتين . . .

قذفت بدنى بعيدا عن الجواد .. انتزعت البلطة الحادة من جانب سيارة الجيب . . وتسللت إلى داخل الغار تحت صف

من المشاعل غريبة الشكل متراقصة الإضاءة . . تعكس أشباحا ذات قرون طويلة ومخالب معقوصة مدببة . . .

فى نهاية الممر الصخرى برزت القاعة المنحوته . . تزينها مجموعة الفوانيس فى مزيج مختلط متداخل من الانعكاسات الحانية . . وعندما مددت عنقى من فرجة باب موارب لطمتنى على غير توقع موجة صقيع عاتية . . لكنى تحملتها واستطعت الرؤية بوضوح . . .

القاعة تمتد بطول قرابة عشرة أمتار فى عرض ستة أو سبعة .. لاشىء يملأ فراغها خلاف تابوت زجاجى أو ما يشبه التابوت وقد احتوى بداخله جثمانا بشريا . . والرجال الخمسة والفتاة ينحنون فى خشوع قبالة قدمى التابوت .. فى حين ملأت البرودة القاتلة بقية فراغ القاعة . . .

كانت فرصتى .. فى وثبة متسعة واحدة انتصبت لدى رأس التابوت أشهر البلطة وأسددها على قمته البلورية .. وأما الصيحة التى فتحت فمى عنها فقد دوت غير آدمية بالمرة ...

— والآن . . من أنتم وماذا جئتم تفعلون فى بلدتنا .. أريد معرفة كل شىء عنكم . . وإلا . . وإلا حطمت جثة معبودكم المحنط هنا . . .

ولما ظلوا على جمودهم عاجلتهم بصرخة أكثر شراسة :

انطقوا . . أريد الحقيقية فورا . . .

تطلعت الفتاة إلى أكبر الرجال سنا . أومأ هذا موافقا .. فاستدارت تقترب منى فى تردد . . .

ـ ألا تتبين أولا محتوى التابوت . . .

خفضت رأسى أتفرس فى الوجه المسجى تحت انحناءة البلور .. وصعقت . . قربت وجهى حتى التصق بالصفحة الشفافة . . . حملقت بكل عصب فى عينى . . . واعتصرت الدهشة روحى . . .

ـ أمينة ! !

هزت الفتاة رأسها نفيا : خطيبتك شبيهة لها فحسب . . أما هى . . الهاجعة أمامنا فإنها أميرتنا . . هيسكا . . . ترقد حية فى أسر الجمد . . .

عدت أتفحص المخلوقة مسبلة الرموش أسفل تاج فرعونى من الذهب الخالص .. وتفحصت الغلالة الرقيقة التى تحوطها والمشغولة كذلك برقائق الذهب والقصب حول العنق والرسغين بينما تكشف عن تفاصيل جسدها مما يعجز فنان عن محاكاة إبداعه . . وغمضت فى بلاهة . . .

ـ أميرة . . على أى إمارة . . بالله . . من أنتم ؟

تتالت الكلمات عبر شفتى رفيقة الرجال الخمسة كأنها فقاعات سحرية تتولد من عدم : نحن ملاحو سفينة كونية قدمت من كوكب صغير فى حجم قمركم ويدور فى فلك الجرم العملاق

الذى تسمونه أورانوس . . ومخلوقات كوكبنا تماثل مخلوقاتكم وإن اختلفت فقط فى كونها بلا رئات ولاتعرف التنفس لخلو كوكبنا من غاز الأوكسيجين . . .

كنت أدير رأسى أتفرس فى وجوههم الشاحبة حين قاطعت الفتاة . . .

ــ لكن ما الذى يدفعكم للقدوم إلى أرضنا ؟

أسرعت تضيف : أو لم أذكر لك أننا ندين بأصلنا الحضارى للقدماء من شعبكم . . بالذات لعهد ملككم المؤله خوفو . . بانى الهرم الأكبر . . مركز أسرار الكون ومعجزة الوجود والخلود . .

تمتمت فى عدم تصديق : تقصدين قدماء المصريين . . .

ــ أجل . . لقد غزت سفن الملك خوفو الكونية رحاب الفضاء حتى حطت على كوكبنا الصغير . . لتحمل إلى سكاننا البدائيين وقتذاك كافة ما كنتم تتمتعون به من تقدم فى العلوم والتكنولوجيا . . . . وفيما بعد . . وبينما تعرض كوكبكم للعديد من الكوارث الفلكية والانتكاسات الحضارية . . فقد تقدم قومنا فى مضمار الرقى بصورة ملحلة . . وها نحن اليوم الذين نبادر بإرسال سفننا إليكم . . إلى أرضكم . . بعد أن كنتم أنتم الذين تأتون إلينا أيام خوفو العظيم . . .

ثم أومأت فى كثير من التبجيل نحو محتوى التابوت البلورى

واسترسلت غير عابئة بمحاولتى للكلام : وفى الرحلة الكونية قبل الأخيرة إلى كوكبكم . . منذ ثلاثين عاما أرضية . . وكانت واحدة من رحلات الدراسة العادية لأحوال تخلفكم وما يعم أفراد مخلوقاتكم من صراعات وحروب تدهش لها كثيرا لما تتسم به من حمق وأنانية وقصور فى التفكير . فى هذه الرحلة قبل الأخيرة ضمت سفينتنا الكونية . . الأميرة الشابة هيسكا . . والتى قد تصبح فى يوم ما ملكة متوجة علينا . . .

لم أقو على مزيد من الصمت : مرة أخرى تقولين أميرة ؟

— بل ومن أنقى أميراتنا دما . . إنها واحدة من أحفاد خوفو المباشرين . . المقدسين . . . آه . . وقد كدت أقص عليك مقدمها إلى كوكبكم . . حيث أصابتها تلك الحساسية من تسلل ذرات الأوكسجين إلى بشرتها رغم تأكيد الاختبار الطبى مثلما يختبر كافة ملاحى السفن القادمة إليكم بعدم قابلية الأميرة لهذا النوع من المرض . . لكن يبدو أن خطأ ما قد وقع يومذاك . . .

شدتنى روايتها البالغة الغرابة . . .

— أو لم تعالجوا إصابتها فى الحال ؟

لوحت الفتاة بذراعها : بلى . . حساسية الأوكسجين تستخدم ضدها مصلا على هيئة قوالب تشبه مربعات الحلوى ولها استخدام خاص . . لكن لسوء حظ الأميرة فقد أدى هبوط السفينة العجل

فوق منطقة وعرة غربى هذه التلال فى ذلك اليوم منذ ثلاثين عاما أرضية إلى تنفجر قوالب المصل وهى هشة بالغة الرقة . . .

قلت فى يأس : عندئذ أوشكت أميرتكم على الموت . . .

– بل لم يجد ملاحونا مفرا من الإسراع بتجميد أميرتهم داخل جهاز التبريد الذى تراه ويعمل ببطارية ذرية . . حتى يوقفوا استفحال المرض إلى أن يتوفر لهم العلاج . . .

تساءلت فى استنكار : ومن أين يجلبون العلاج ؟

– من سفن كونية أخرى يكون مسارها قريباً . . .

زاد استنكارى : أو ليس الأفضل أخذها معهم مجمدة داخل التابوت أو الجهاز بدلا من تركها معرضة للمخاطر فى هذا الكهف ؟

– يستحيل اختراق السفينة الكونية جو كوكبكم وجهاز التبريد يعمل بداخلها . . فإن درجات الحرارة العالية توقفه إن لم تنسفه ولو جاءتها الإصابة وهم خارج نطاق جوكم لتغير الحال وأمكنهم تشغيل الجهاز . . . . .

وغدت أتطلع من جديد إلى وجه الأميرة الآتية من الفضاء . .

للمهابة رغم قيود الجمد .. الحلوة فى ارستقراطية رغم كون كل خلية فيها .. كم هى قريبة الشبه من أمينة.. زوجتى المستقبلة.. بذلك الشعر القصير المحمر .. والعينين المسبلتين فى تحد.. والأنف

الرقيق الانحناء وهو يشمخ زهواً وكبرياء . . وتعاليا . . ولولا قصة الجماعة صفر الوجوه . . وواقع سحناتهم الكئيبة . . وكذا وجود جهاز التبريد ينشر الصقيع حوله .. لظننت نفسي فى حضرة أميرة فرعونية تهم بمغادرة فراشها واستدعائى باسمى . . .

استعدت مشاعرى بعد جهد . . قلت فى استسلام . . .

– الآن وضح أمامى كل شئ ..إذا فأنتم جماعة أخرى اوفدت بالمصل الشافى . . لانقاذ أميرتكم . . بعد أن ظلت مجمدة طيلة ثلاثين من الأعوام . . .

أشارت الفتاة إلى علبة معدنية يحتضنها ثانى الرجال قريبا منها ...

– بالفعل . . انه يحمل ما سننقذها به . . .

ولقد تتابعت الأحداث بعدئذ تماما كما شاء لها واضعوها أن تتم . . وسط الذهول المطبق الذى حط على . . .

فتح جهاز التبريد من أعلاه ..امتدت أصابع تغلفها قفازات.. شق أسفل عنق الأميرة بواسطة شعاع ضوء رفيع .. وضع قالب صغير فى قوام قالب الشيكولاته ولونه البنى .. ضم نسيج العنق .. دهن بسائل لزج فالتحم فى الحال . . ولم ترق قطرة دماء . . .

وفى أعقاب ساعة زمنية كاملة كانت الأميرة تأخذ طريقها إلى طبق طائر سحب من جوف السيارة الضخمة إلى رقعة تتوسط تلال الشيخ واكد البنفسجية . . .

هتفت الفتاة بكلمات مبهمة وهى تتطلع نحو السماء .. تأخرت عن مرافقيها لتقترب منى فتقبلنى بينما تترقرق حبات لؤلؤية على خديها . . ثم تنهدت ورفعت فمها هامسة سنستقل الطبق الطائر إلى حيث تتوارى سفينتنا الكونية بعيدا . . . فوداعا . . .

هل لوحت لهم وعيونهم الواسعة أو عويناتهم تتأملنى من وراء فتحات الطبق . . بينما يصعد ثم يحوم برهة قبل أن يبتعد ..

أم تشاغلت عن تحيتهم بمراقبة الغار وهو يشتعل ويتلاشى هباء بمعداته . . وبالسيارتين عند مدخله .. بعد أن ألقوا بالكرات التى تفجرت دون ضوضاء لتمحو كل أثر تركه الغرباء . . .

ان الذى ما زلت أعيه . . وأتيقن منه يقينى من وجودى هو أن هناك مخلوقتين إحداهما عذبة الشفتين والأخرى من نسل ملكى مقدس تستقران فى مكان ما قصى . . ناء . . فى أعماق الفضاء . . . . . توصينى بها خيرا شبيهة لها فى مذاق الشفتين ونبل القسمات .. كلما حلا لى أن أضم هذه الشبيهة بين ذراعى ...

* * *

السينكرفينا ..

وأنا فى قلب الجهاز .. تنغلق على اركانه وتتوغل إلى أعماق موجاته .. مجتازا قمة من قمم نشوتى .. بغتة .. نبتت الفكرة فى رأسى ...

كيف لم أنتبه إليها من قبل .. كيف مرت ثمانية عشر عاما دون أن أنتبه لحقيقة ماثلة دواما قبالتى .. تقبع .. شامخة .. بأحرف مضيئة ليل نهار فى طريقى ...

فى اليوم التالى أسرعت بدفع الرسم المقرر ودخول المبنى المشيد حديثا من الصوف الزجاجى ذى المائة طابق والأربعة آلاف كابينة تسع ألف فرد ...

وكالعادة قادتنى البؤرات المضيئة التى تتناوب حمل رقم

تذكرنى . . عبر المصعد . . فالممرات المتحركة . . إلى أن أدخلتنى الكبينة المصمتة بالطابق الخمسين . .

و بمجرد ولوجى تلقفتنى إرشادات الصوت الخفى الرتيب ...

« أهلا بك فى دار سينكرفينا الدقى . . . . من فضلك . . . اجلس فى هدوء على المقعد الوحيد المقابل . . . . ثم . . اجذب طاقية الأقطاب النووية . . وضعها على رأسك . . أرجوك أحكم وضعها تماما . . كذلك ثبت الأربطة الجلدية حول وسطك وكل من فخذيك . جيدا . . .

حسن . . والآن فإلى لوحة التشغيل . . اضغط الأزرار ١ و ٤ و٥ و٦ . . وكذا حرك مفتاح العداد البارز . . حركه وئيدا على العام الميلادى الذى ترغب . . . . . . أما الزران ٢ و٣ فهما للتوقف والاسترجاع .. كما ان الزر ٧ للحركة البطيئة. . . . .

شكرا عزيزى . . . شكرا . . .

نتركك أخيرا مع رحلتك الممتعة عبر دنيا . . السينكرفينا . . الساحرة . . . . » وكما يحدث فى كل عرض أقصده انتهيت من تنفيذ التعليمات قبل أن ينهيها الصوت . . فطالما أديتها حتى وعيتها جيدا . . .

و سرعان ما استرخيت . . وركزت بصرى . . محدقا فى الشاشة الصغيرة البانورامية التى تواجهنى على بعد مترين فقط . .

كان العام الميلادى الذى اخترت هذه المرة هو ٢١٢٨ ويعود بى ثمانية عشر عاما إلى الخلف . . عندما كانت سنى الرابعة عشرة . . وكان اختيارى لها . . بالذات .. وكما نبتت فكرة الأمس .. بسبب ما كان ينوء به كاهلى من حمل ثقيل طيلة أعوام وأعوام . . .

أن أقدم يوما قاتل أبى إلى حبل المشنقة . . .

لكن حينما انسحبت ذرات العرض المجسم من أغوار خزانة ذاكرتى .. وتتابعت صوره الحية الشيقة قبالتى . . . . فعبثا حاولت العثور على اليوم المنشود . . .

لقد اختفى يوم « الرابع من نوفمبر ٢١٢٨ » . . رغم تركيز مطلق طاقتى الفكرية انفلت .. انمحا .. ولم يظهر على الإطلاق ...

ولدى خروجى من الدار العملاقة كسيف البال مضعضع النفس والحواس . . وبينما الأضواء الملونة ذاتية الحركة تصرخ محنقة من ورائى . . .

كنت على يقين تام . . أن لا أمل تبقى لدى لتنفيذ خطتى إلا بمعونة العجوز عوكل نور الدين . . .

* * *

خلع الرجل عويناته السميكة . . نفخ فيها ثم مسحها بطرف جلبابه . . اعادها فوق أنفه الشبيه بثمرة الفراولة وراح يحك قفاه فى حركة آلية بطيئة . . أخيرا أطلق الصرير من بين أسنانه . . .

– صحيح انى واحد من جيل الرواد مكتشفى سينما الذاكرة الدفينة . . أو ما يختصرونه فى هذه الآونة بالسينكرفينا . . إلا أن أبحاثى وأيضا دراسات زملائى . . توقفت كلها عند معضلة واحدة. . كيف نحدد الأزمنة بمعيار دقيق . . .

الرجل تخطى عمر السبعين عاما وسمعه ثقيل . . وأعرف عنه عصبية المزاج أيضا . . لذا تركت نافورة الهواء التى كنت أجلس عليها واقتربت منه فى هدوء . . .

– دكتور عوكل. . معلوماتى شحيحة فى مجال سينكرفيناتكم لكن يمكننى توضيح الأمر على هذا النحو . . مقدرة المخ الفذة على اختزان مليون بليون معلومة . . أو ما يزيد . . جعلته أكثر أعضاء الأجسام الحية إثارة لعدد ضخم من علماء العالم . . ثم تركزت أبحاث البعض منهم حول مراكز المخ الدفينة . . وعن طريق زرع أسلاك دقيقة . . تقل فى سمكها عن شعرة الرأس البشرية بنحو مائة مرة .. الى أغوار الخلايا العصبية برأس إنسان حى .. فى كامل وعيه .. أمكن نقل النبضات الكهربائية الضعيفة لمخ هذا الإنسان إلى الأجهزة وبالعكس . . .

توقفت حتى أشعلت لفافة . . .

– وهكذا تداعى اكتشاف مناطق المخ أو الإدارة العليا فى الكائن الحى .. منطقة وراء أخرى . . حتى توصلتم إلى أكثر اكتشافاتكم غرابة . . حيث عثرتم على مكامن الذاكرة المنسية أوما يسميه المختصون أرشيف ذكريات الماضى القصى . . .

لوح الرجل بكلتا ذراعيه . . انحنى فى مواجهتى فانحسرت الإضاءة عن نصف وجهه . . عندئذ بدت قسماته وذؤابة أصبعه المشهر نحوى . . خضراء . . مموهة . . مخيفة . . .

– ما تذكره ياصاحبى اصبح تاريخا . . فالأسلاك انتهى عهدها وإنما نستخدم منذ أمد بعيد أقطابا ممغنطة . . .

– عظيم . . المهم أنكم عرفتم حدود الذاكرة المنسية . . وتوصلتم للكثير من اسرارها . . حتى كانت الليلة التى قمت فيها أنت . . بتتويج . . جهودك وجهود زملائك . . بالاكتشاف الأعظم . . فبلغت أولى خطوات السينكرفينا . . .

انتفخت أوداج الرجل . . عمه الزهو والكبر . . فى حين لمعت فى حدقتيه نظرة استحسان لكلماتى . . . قال ...

– كم بدا رائعا مدهشا . . إننى لن أنس وجهه إطلاقا . . كان ذلك المتطوع قداستسلم لإجراء التجربة عندما وجدته ينتفض على غير توقع . . ويصبح والاقطاب تغطى رأسه إلى حاجبيه يطلب منى الانتظار قليلا . . فقد أحس وكأنما هو يسمع لحنا موسيقيا قديما كان قد سمعه فى صباه . . فلما استوضحته . . أضاف أن اللحن يتمثل له الآن بكل تفاصيله . . ويحيطه بكل الظروف التى تعالى خلالها . . . . .

سرنى اندماجه فأضفت : أعلم أن المشاهد التى نستدعيها تبرز

من منطقة النسيان بكافة معالمها السابقة وقتذاك .. بألوانها.. بروائحها بأصواتها . . وبكل ما تشمله من حركة ومرئيات . . .

هتفت ملتاعا : لكن ذلك يتم للأسف عشوائيا . . دون التركيز على زمن بعينه .. أجل .. لقد نجحنا فى استدعاء ذكريات العام بطوله . . بينما فشلنا فى تحديد زمن أكثر اختصارا . . زمن صغير . . العشر ساعات مثلا . أو أربع وعشرين . . أو حتى – شهر بذاته . . .

رنوت إليه متضرعا : معنى ذلك نبذ كل رجاء ؟

ومط شفته السفلى : آه . . أظن . لا مناص . . .

للحظات عمنى نوع من الضياع . . أحنيت رأسى فى استسلام وخطوات أتلمس طريق الخروج دون صوت . . .

لكن من ورائى استوقفنى الصرير محتدا . . .

– انتظر . . جاءتنى فكرة . . ربما وجدنا حلا لدى العالم فيظى . . إسماعيل فيظى . . فأظنه أجرى مؤخرا تجربة فريدة قد تعيننا . . .

. . . . . .

لثالث مرة احتوانى المقعد من الألياف الرغوية . . ولثالث مرة أحاطت بى نفس الأجهزة ونفس الوجوه . . لكن ابنة العالم فيظى هى التى تولت فى المرة الأخيرة تثبيت الأقطاب والأربطة حول رأسى . . .

راحت تحتضنني بذراعيها العاريتين وقد انهمكت فى عملها .. غير عابئة بتأثير أنفاسها الدافئة الممتزجة بعطرها .. فى وجهى ..

كان أبوها قد تلقانى وتلقى زميله عوكل بترحاب كبير .. وفيما يبدو فبينما كنت افتش بإصرار عن منفذ لاسترجاع أحداث يوم الرابع من نوفمبر ٢١٢٨ بأدق تفاصيله . بغية كشف النقاب عن قاتل أبى .. كان فيظى بدوره ينشد متطوعا ليجرى تجربة متطورة عليه . .

لكنه أجرى ثلاثا بدلا من واحدة . . .

التجربة الأولى أعطتنا . — عبر جهازه — مشهدا لى خلال أحد أيام صباى الأواخر من ديسمبر ٢١٢٨ . . .

والتجربة الثانية كانت أكثر توفيقا . . فقد أوصلتنى مباشرة لليوم السابق على يوم مقتل أبى . .. أما التجربة الثالثة فهى التى أقف على أعتابها اللحظة . . .

فى النهاية كفت الأنامل الرقيقة وتركتنى . . أحنيت وجهى من اليمين لليسار . . لمحت عنق العالم فيظى وذقنه والتجعدات تنتشر فى أنحائها وكانت من آثار انكبابه أعواما مضنية على أدواته وكتبه .. ثم لمحت أسنانه وبينها سنة ذهبية . . ثم لمحت شفتيه تهمسان . . .

— لو فشلنا فى هذه . . كذلك . . فسنضطر للانتظار أسبوعين أو ثلاثة لتحضير كمية إضافية من البلورات النقية المساعدة ..

لكن العالم عوكل اكتفى بترديد كلمات دعاء مبهم . . .

فى ختام دقائق ثقيلة . . اندلعت الطاقة عبر الأجهزة . . .

وانتشر أزيزها المكتوم يرج أنحاء المقعد . . والأثاث . . والجدران الملساء المحيطة . . وكما يحدث فى عروض السينكرفينا بدأ عرض التجربة الثالثة . . . .

« اظلمت الرؤية أمام عينى ثوان معدودات ليعود الظلام فينجاب ببطء . . انتشرت خيالات رمادية . . اشتعلت فى أعقابها أضواء متداخلة مأنوفة . . مثلما تتلألأ مياه النهر لدى غروب الشمس أو تتشابك ملايين الثريات والكهارب . . أو كعجلة الروليت لدى دورانها بأرقامها الملونة . . أو ثوب الراقصة الملىء بالزركشة والترتر فى لفاته المحمومه. . . . ثم انزاح عنى ثقل غامض ...

انفلت . . تسلل .. من أعمق أعماقى شئ مبهم غير مرئى. .. وعدت خفيفا . . منتشيا . . منطلق الأنفاس . . أحمل من السنوات أربع عشرة فحسب . . .

وانقذفت إلى خارج جسدى أو إلى داخل المنظر الذى انفتح أمامى ووجدتنى فى لمحة الطرف . . جزءا منه . . .

بدوت صبيا نحيفا ضامر الوجه .. وكنت أركب حوامة فردية خفيفة من تلك التى تصنعها ورش أسيوط . . .

وكانت الساعة قد تخطت التاسعة من ليل . الأحد أربعة

نوفمبر ٢١٢٨ .. عندما وصلت بيتنا المشيد من حوائط النفايات المصنعة بالبلاستيك أعلى الربوة المطلة على بحيرة دمنهور الصناعية...

أوقفت حوامتى فى أول الحديقة . . . انطلقت تحملنى الفرحة وسط صفين من مزروعات المريخ الإبرية التى جلبنا العديد من أصنافها مؤخرا وتفوقت زراعتها فى تربة مصر . . .

فجأة برز أخى حامد .. كم هو صغير على الشاشة .. الآن... وتبينته يحمل وجها فى بياض الثلج . . ما الخبر؟

باقتضاب وأسنانه تصطك من الذعر أنبأنى بقدومه قبلى بدقائق..

فلما طرق باب البيت لم يجبه أبونا من الداخل . . فى حين ظل الصمت على حاله رغم توالى الطرقات . . .

صحبت أخى ونحن نسرع كالعاصفة . . وعدنا نلقى بأكتافنا على الباب من جديد . . لكن ليس من مجيب . . كم هى رؤية مخيفة لحادثة بالغة الهول وقعت منذ ثمانية عشر عاما . . وبقيت آثارها المدمرة الزمن بطوله وعرضه . . .

والآن وأنا أستعيد نفس وقائعها . نفس دقائق مكوناتها.. المشحونة . الممطوطة . . المختلطة بدوامة من التخبط والحيرة والألم . . .

لا . . بل إن الألم الحقيقى . . الألم الممض الصارخ . . قد مزق صدرى لدى كسرنا الباب ورؤيتنا أبينا ملقى وقد صرعته طلقة أشعة ثاقبة فى جبهته . . .

انحنيت أختبر جسد أبى . . كان لايزال دافئا ينبض . . وبدا أنه أحس بانكفائى عليه .. فقد لفظ الحرفين المبهمين دون أن يحرك أجفانه : . . ش . . ك .. ..

ثم لفظ أنفاسه الطاهرة . . ورحل . . .

إلى هذا الحد فأنا أعى الأحداث جيدا . : .

على أن ما أعقب ذلك .. ما تم بعد صراخى وبكائى المر .. كله متداخل مطموس . . وقائع عدة تختلط على أشد الاختلاط وتكاد تصبح هى والظلام الدامس صندوقا عريضا محكم الغلق يتسمى فى ذاكرتى « بأحداث بقية يوم مقتل أبى »

لكن . . ما هذا . . هه . . هه . : .

لقد وجد أخى صندوق (التليفون المرئى) محطما . . .

وقررت أنا الإسراع بحوامتى لاستدعاء الشرطة . . وهأنذا أتذكر انطلاقى عبر الباب . . ثم عبر ممر مزروعات المريخ .. لكن . . هذا . . . . هذا . . . . الذى يعدو هناك . . . وجلبابه الفضفاض يلمع فى ضوء القمر بعد أن غادر الممر .. فى أى ركن من دهاليز ذاكرتى يستقر . . فى أى ثنية من ثناياه العديدة المتشابكة يكمن . . يختفى . . . لم لم اتذكره قبلا . . . وأحاول اللحاق به . . اجاهد .. وبرغم استماتتى برهة.. وقد بان جانب من وجهه . . برغم أننى ينجح فى الاختفاء . . فى التبخر كلية . . .

« أوقفوا الآلات . . أوقفوها »

كانت صيحتى غير الآدمية تلك التى دوت . . فأوشكت أن تقتلع الأقطاب من أماكن تثبيتها فوق رأسى . . .

ـ ماذا . . ما الذى ألم بك ؟

عدت أكرر صياحى : أرجوكم . . أعيدوا عرض الدقائق الخمس الأخيرة مما استخلصتموه من أعماق ذاكرتى . . .

ورأيتنى أعدو من جديد .. وامتدت المزروعات المريخية على جانبى . .ولمحت الجلباب المتطاير . . وأنار القمر نصف الوجه . . . . . . وانفتحت أبواب كانت مغلقة بمخى. . . . . . .

الجلباب أعرفه . . .

نصف الوجه مألوف لدى . . .

لقد سبق وحاول أبى لفظ اسم قاتله . . .

إنها « شكرية » .. المرأة التى تزوجها عقب وفاة أمنا .. وأنجب منها طفلة ثم نبذها . . طلقها . . منذ أقل من عام لسوء معاملتها لولديه . . أنا وأخى . . .

أخيراً . . فى نهاية مشوار طويل طويل ..وإصرار لا يدانيه إصرار . . قبضت على الحقيقة التائهة . . عرفت قاتل أبى . . بل قاتلته . . شكرية أمين نصوحى النمر . . وهذه لابد وأن تنال عقابها . . . فهل تفلت بعد كل ذلك من يدى ؟

وعجلت أطير الخبر إلى أخى حامد الذى أغرق الشيب رأسه وفوديه بهالة رمادية لا تتفق وسنه . . وملت عليه أبثه كل كبيرة وصغيرة يملأنى الاعتداد لاقتراب ساعة القصاص من قاتل أبى . . .

لكن حامد قابل كلماتى ببرود واستخفاف . . مكتفيا بأن هز رأسه وقال : وكيف سيمكنك استدراج المرأة إلى بيت العالم صديقك ؟

— هه . . .

— بل وعلى أى الصور يمكنك قسرها على ارتداء طاقية الأقطاب التى ذكرت لاستخلاص ما سبق وسجل برأسها ؟

وحين هممت بالاعتراض أوقفنى فى رفق : لا أدرى فيم إصرارك على خوض الصعاب من أجل شىء منته .. أو لم تفشل الشرطة من المبدأ . . أم تراك أكثر حنكة منهم . . .

وصمت أخى قليلا قبل أن يشرد ببصره : ثم من أدراك أن المرأة . . زوجة أبينا السابقة هى القاتلة . . فعلا ؟

صحت معاندا : لقد تعرفت عليها بنفسى . . داخل عرض سينكرفيى بجهاز العالم فيظى كما أخبرتك و . . . . .

لكنه عاد يقاطعنى فى ضيق : الذاكرة قد تختزن أشياء

لا وجود لها . . أوهاما مثلا . . وقد تبتكر .. تختلق من عدم .. صورا تقوم بفرضها كواقع . . .

– لكن القضاء يأخذ باعترافات السينكرفينا . . .

– وبالرغم من ذلك فهناك أخطاء ترتكب باسمها . .

ولم تدم الفرحة . . لقد تسبب أخى فى تبصيرنا بمشكلة حقيقية غابت عنا مؤقتا . . أجل . . فكيف يمكن استدراج المرأة شكرية وبعدئذ استخلاص ذكرياتها ؟

على أن فكرة طرأت للعالم يسرت الأمور فيما بعد وقادتنا لإتمام عملنا الكبير . . .

فقد بدأ فيظى مفاوضات مع صاحب «دار سينكرفينا القضاء» بعد تجديدها مؤخرا وتعد من أول دور السينكرفينا التى أقيمت بالقاهرة . . وهى دار صغيرة ذات أربعة طوابق وتستقر أعلى هضبة المقطم الجنوبية ...

فى نهاية أسبوع حافل انتهت المفاوضات بإقناع صاحب الدار بجدية استغلال الجهاز المطور . . واتفق الطرفان على تخصيص الطابق الأول من أجل «العروض المبتكرة ذات التواريخ المحددة جدا» . . . .

كانت خطوة موفقة تلك التى أقدم عليها العالم فيظى بعد أن أيقن تماما من عدالة قضيتى . . .

أما الخطوة التالية فجاءت أيضا من ابنة العالم وهذه كلفت صديقة لها باستدراج المرأة شكرية حتى تجرب عرض « دار سينكرفينا الفضاء » والقريبة من بيتها بنفس الهضبة . . فقد نما إلى علمها — هكذا أغرتها الصديقة — أن الدار إنما تقدم نوعا مبتكرا من استعراضات التجوال فى أنحاء الذاكرة البشرية . . وقد حوت كنوزا من الأحداث والمرئيات تفوق عروض السينما التى كان الناس يعرفونها فى القرنين التاسع عشر والعشرين ...

وبذا استقامت بنود الخطة وعاد لها ترابطها من جديد ... وتحدد يوم ذهاب المرأة إلى فخ قدرها ...

* * *

منذ الصباح الباكر اتخذت درجة الاستعداد القصوى ..

فقد انضمت بحجرة التحكم المركزى بدار سينكر فينا الفضاء بالمقطم إلى كل من العالمين عوكل نور الدين واسماعيل فيظى .. إلى جانب صاحب الدار وعمال الدار ...

ومنذ الصباح الباكر أيضا شاركت فى كافة الترتيبات التى كانت تتخذ على قدم وساق.. وشاهدت عرضاً تجريبيا تم بصورة مرضية . . أما البلورات المساعدة فهذه قد أعد منها العالم فيظى كمية تفى وتزيد عن الحاجة . .

وتعالت دقات ساعة قصية تعلن تمام السابعة مساء . . .

ومن بعيد . . من طرف الشارع المبلط حديثا بمادة السيلكا الزجاجية الملساء . . برزت ثلاثة أجساد أنثوية . . جسدان نحيفان والثالث أكثر بدانة وأبطأ حركة . . .

آه . . أخيرا .. ها هي عدوتي قد جاءت إلى بقدميها .. قد أقبلت في الواقع والحقيقة وليس كما تعودت في خيالاتي المبهمة .. وحملقت من وراء فرجة النافذة . كانت المرأة تتقدم في وهن وقد توسطت ابنة العالم فيظي وصديقتها الأخرى البدينة .. وكانت السحابة المكيفة التي تطلق ليلا في سماء العاصمة القائظة قد ألقت عليهم أضواء وظلالا شيطانية مرعبة . . .

ولم أقو على متابعة المنظر من مكاني . . واستدرت ألقي جسدي على طرف أريكة جلدية ذات طراز يعود لأواخر القرن الماضي . . العشرين . . .

لقد طغت فرحتي على كل مابداخلي من مشاعر . . فها قد حانت اللحظة الحاسمة التي سأكشف فيها لأخي . . وأقاربي . . والشرطة . . والعالم أجمع . . عن الشخصية الآثمة التي أزهقت روح أبي . وأنهت شعلة حياته غيلة وغدرا . .

. . . . . .

« أهلا بك في دار سينكرفينا م . ق . الفضاء . . دار سينما الذاكرة الدفينة المحددة بدقة . . أقدم الدور وأعرقها .. أهلا بك

فى دارنا بمدينة المقطم . . . . : من فضلك اجلس فى يسر وهدوء على المقعد الوحيد المقابل . . استرخ تماما . . ثم اجذب طاقية الأقطاب النووية المطورة . . ضعها على رأسك وأحكم وضعها . . أرجوك ثبت رباطها أسفل الذقن جيدا . . كذلك ثبت الرباط الجلدى العريض حول وسطك . . .

حسن . . . وبعدئذ فالى لوحة التشغيل . . . الجهاز المطور لن يحملك مسئولية ضغط أزراره أو تحريك مفاتيحه فهذا عملنا نحن إنما عليك فقط اختيار اليوم والشهر والعام الميلادى الذى ترغب استدعاء ذكرياته . . بالإفصاح كلاما . . ونحن نجيب رغبتك فى الحال . . .

شكرا عزيزى . . . . . . شكرا جزيلا . . . . .

نتركك أخيرا مع متعة المتع . . . رؤية أحداث عمرك الماضية تحيا من جديد بكامل بهائها ورونقها . . . .

اعتدل وجه المرأة شكرية . . بدا على قسماتها المضيمة البحث عن تاريخ سبق إعداده . . لفظت عددا بوهن وبلا أى تعبير . . .

ـ ٢١ مارس . . عام . . ٢١٥٣ . . .

بالطبع هذا التاريخ يعنى حادثة تخصها هى . . .

لكننا فى مكاننا المتروى كنا نرتب استخلاص وقائع يوم مغاير . . يوم تجمع ـ حادثة فيه ـ كلا منها ومنا . . معا . . .

وأسرع العالم فيظى بحدد بأزرار تقسو عليها أصابعه .. يوم . . « الرابع من نوفمبر ٢١٢٨ » . . .

وتسمر وجهى . . ووجوه المحيطين بى . . على الشاشة التى تواجهنا . . التقت بها أعيننا تحاول الغوص إلى أعماقها . . .

الآن . . مجرد ثوان .. ونرى كل ما حدث فى ذلك اليوم الغابر الذى انتهى من ثمانية عشر عاما مضت . . .

وتسللت من بؤرة ما . . غائرة . . دفينة . . مرئيات رتيبة لا تهمنا . . هذه المرأة .. وقتذاك .. كانت فيما يبدو كثيرة الزيارات تحمل وجها من ذلك النوع المريض القسمات.. الدائم الهم والقلق.. تنتقل به عبر عدد من بيوت أقاربها أو أصدقائها . . .

ولمحناها بجلبابها الباهت تطرق فى تثاقل عددا من الشوارع والأماكن بالحى الذى تسكنه . . ثم استقلت تاكسيا طائرا حملها من شرق العاصمة ليوصلها فى نحو نصف الساعة إلى سماء مدينة دمنهور . . .

فلما هبط التاكسى فى ساحة تعلو إحدى العمائر لحنا فى الجوار البحيرة الصناعية المعروفة . . أخيرا ولجت المرأة شكرية شارعا مألوفا لدى . . .

كانت فى طريقها إلى بيت أبى . . . .

بغتة . . خروجا على مجال الصور المتتابعة على الشاشة طرقت

أذاننا همهمات اعتراض . . وما هذا . . ما الذى يتضح برغمى ولم أطلبه .. لا . . لا . . لا أريد هذه الرؤية البغيضة ، لكن المرئيات ظلت على تواليها . . .

حتى غطت على الهمهمات .. .

وولجت المرأة شكرية بيت أبى .. وقابلته .. ودار بينهما حوار ساخن . . انطلقت خلاله تلح فى طلب معونة مالية لابنتها منه . . وكان أبى يرفض فى صلف . . وبكت المرأة . . جثت على ركبتيها تستعطفه من أجل ابنتهما وليس من أجلها هى .. انسابت الدموع تغرق خديها . . بل عرضت أن يأخذ الفتاة لديه بعد أن ضاقت بها السبل . . . .

لكن أبى ظل على تحجر وجهه ومشاعره . . .

ثم لفظ المشهد وجها ثالثا .. وجه أخى حامد .. آه متى أتى كيف أتى ؟ ؟

بدا الدخيل الجديد محتدا متهورا يحمل فى يمناه قاذفا للأشعة . .

وفى حركة حاقدة ألصق الجسم الأسود بجانب المرأة .. تحت ثديها الأيسر .. وأخذ يسبها ويأمرها بمغادرة المكان .. لكن أبى تشبث به يثنيه . . يحاول إبعاد الفوهة الكثيبة عن الجسد المرتعد . . .

وازداد الصراع بين أبى وأخى .. ثم على حين غرة . . . . .

يا إلهى . . . يا إلهى . . . . . .

لقد انفلتت طلقة الأشعة لتستقر ثاقبة مميتة فى جبهة أبى .. وسقط

الجسد الذى كان ينبض بالحركة .. بالانفعال .. منذ لحظات ...

وألقت شكرية بصدرها على أبى . . فى حين جمد حامد وقد تاه بصره وتدلت ذراعاه . . وهبط فكه . .

ومن أعماق الموقف المأساوى تناهى إلينا صوت أبى واضحا مغتفرا : اذهبى انت ياشكرية . . اهربى . . فأنت بريئة . . .

وظل فمه يردد بطيئا لكن مصرا . . . شكرية بريئة . . ش . . ك رية . . بريئة . . . .

تراخت أعصابنا المشدودة . . انفكت أربطتها فى تردد فى حيرة . فى دهشة ممزوجة بالحيرة . . .

من مكاننا المستتر عن المرأة . . من بقعتنا الخفيه عنها والتى نحكم منها تدبيرنا ضدها . . دون أن تعى هى شيئا . . .

من الحجرة الضيقة البعيدة .. النائية . . كم أحسسنا . . بل كم عمنى أنا بالذات .. ذلك الشعور بالضياع . . بلسعات الندم . . بالاحتقار المتناهى تجاه أنفاس تتردد بين أضلعى . . .

فلم يكن هناك أصدق قولا ومشاهدة مما تختزنه ذاكرة ما فى تيه دروبها المنسية . . .

لم يكن هناك أصدق من مرثيات مطوية دليلا على براءة إنسان اتهمته ظلما . . .

• • •

وتوقفت عقارب الساعة ..

جاءتنى الفرصة أخيراً عقب سؤال ألقته - الدمية - مقدمة البرنامج .. فأدرت رأسى ببطء تجاه سيال الضوء المسلط على وجهى وركزت بصرى فى أعماقه .. وبكل الهدوء الذى سيطر على وقتها أطلقت كلماتى وأنا أزنها كلمة وراء كلمة ....

« أجل . . اننى أثق فى وجود مخلوقات عاقلة قدمت من كوكب آخر . . واثق أنها ومنذ شهرين .. تحاول فى إلحاح شديد الاتصال بسكان كوكبنا .. الأرض .. وماظهور الأطباق الطائرة فى سماواتنا بهذه الكثرة .. واختفاء ثم العثور على أناس منا وقد تركوا على تلك الصورة من الشرود والهلع الوقتى .. بالإضافة إلى ما تلتقطه شاشات الليزر الرادارى وأجهزة التصنت الفلكى بأنحاء دنيانا . . « ما كل الذى ذكرت إلا أدلة دامغة تؤكد

قولى» ... أومأت إلى الدمية الأنيقة جذابة القسمات .. وتساءلت من بين أسنانها اللامعة ...

– وانت يادكتور . . ما موقفك ؟

أسرعت أقول وعنقى يشرئب مخترقا هالة الضوء الحائمة فوقى.. بينما ساعات الاستوديو تضوىء تلقائيا معلنة العاشرة من صباح الثلاثين من أغسطس عام ٢٥٠٦ ....

– وهل يحتاج الأمر إلى تفكير.. لابد وأن يتم الاتصال بهم إن عاجلاً وآجلا .. وأنا أدعو حكومات الدول لتهيئة خبرائها .. من أجل اللقاء المرتقب .. المثير ...

على أن الدمية أغلقت عينيها الجذلتين نصف اغلاقة وكأنها تنعمان بحياة حقيقية .. أو كأن تكوينها طبيعى غير آلى .. وعادت تمهد طريقى بمزيد من الورد والرياحين : لكن .. هل لديك .. أنت .. استعداد لمقابلتهم ؟

لا .. إن هذا أسخى مما توقعت .. بل وددت حقا لو قبلت وجهها الذى ولابد يقرأ أفكارى دون أن .. يستجيب لمشاعرى.. وإن هيئ البعض من نوعها لذلك أيضا ...

تعالت نبرات صوتى : بلا ريب .. بلا أدنى ريب ...

وشدنى سيال الضوء الناقل المتذبذبات كيانى الموجية إلى بؤرات إعادة عرضها فكريا ودون حاجة لأجهزة عرض معقدة .. فأطلقت كلماتى عن محمد خلال تياره ... « ثق . . انى ومنذ زمن

بعيد .. أعد نفسى للقائهم .. لقاء .. كائنات تأتى من الأقاصى .. من خارج مجموعتنا الشمسية » ...

عاد الفم الدقيق ينفرج عن عبارة خبيثة : لن .. تخاف؟

أجبت اللمية مقدمة البرنامج فى عجالة ومزيد من الحنق متناسيا لثوان صفاتها الصماء ...

– مم .. هه .. ليس هناك داع للفزع إطلاقا .. وإنى لأعجب لمن يأخذهم الرعب بينما لم يصابوا بأقل أذى .. إنها كائنات مسالمة .. صدقينى .. وهى لاتضمر نية الاضرار بنا . . وإلا .... ولمحت سيال الضوء بطرف عينى فأملت رأسى نحوه بعنف وتوخيت أن أملى كلامى إملاء متجنبا قدر طاقتى الغضب والعصبية ... «وإلا ماأعلنوا عن مقدمهم أو وجودهم على هذه الصورة الواضحة.. ثم أليس فى مقدورهم وهم يسبقوننا حتما بمراحل موغلة فى العلم وتطور التكنولوجيا .. أن يسببوا لنا البالغ المبهم من الضرر.. مثلا أن يبيدوا العشرات منا فى ثوان.. أو ربما أمكنهم محو قرى ومدن لنا بأكملها..دون أن ندرى من أى اتجاه تأتينا ضرباتهم.. ودون أن نعلم أصلا من هم .. أعداؤنا ؟ ...

ارتفع حاجب اللمية المكسوة ثوبا يلتصق من أمام بنهديها ويبرز مفاتن خصرها وفخذيها . . وحاولت أن ترفع قبالتى أصبعا نحيفا معترضا..وحاولت أن تجرب شريطها الصوتى بكلمات

مكابرة..لكنى لم أعطها الفرصة وإنمابادرت بتأكيد ما أتيت من أجله إلى المبنى العريق المقام بكورنيش النيل منذ خمسة قرون مضت...

— معذرة ..أنا لم أنه كلامى مع المشاهدين بعد . . مهم كذلك أن ينصت إلى هؤلاء الذين يراقبوننا من أعلى لذا .. فها أنا أكرر ماسبق وأعلنته عند بدء البرنامج .. إنى بالفعل آخذ أتم أهبتى واستعدادى .. للقاء أو استقبال أوتلقى رسالة .. أى وافد من خارج كوكبنا والتفاهم معه قدر طاقتى . . زيادة فى الإيضاح .. فبمجرد أن أغادركم الآن سأستقل حوامتى الصاروخية .. أتجه بها مباشرة إلى طريق ساحل البحر الأحمر.. حتى أصل دارى بجنوب مدينة الغردقة الصناعية ...

فلما اتخذت طريق الصحراء فى النهاية كنت أحس الرضاء إزاء مسلكى رغما عما سيسببه من حيرة وتوجس للكثيرين من مستقبلى البث الموجى المسلط على الخلايا المخية الآدمية أينما تكون لدى إذاعة البرنامج فى المساء ...

لكن هؤلاء الذين عنيت بتوجيه كلماتى إليهم فى المقام الأول ...

ترى هل التقطوا رسالتى ؟ وهل يفهمون مضمونها ويستجيبون إليه ؟

. . . . .

كان تقديرى أن ليس أصلح من البث الصوتى المجسم والذى

حل محل التليفزيون فى زمانه (صوت وصورة وأبعاد وروائح وأحاسيس من دفء وبرودة الخ) مجال لمخاطبة أهل السماء .. وإعلامهم برغبتى واستعدادى .. أما الثقة فى مقدرتى على لقائهم فلم تخنى منذ البداية وحتى وصلت فى أعقاب ساعات أربع إلى مقصدى.. بل أستطيع التأكيد أن مزيدا من الثقة والاعتداد بالنفس كانا يملآن صدرى وقد جلست مسترخيا فى شرفة دارى الخشبية بالغردقة عقب حلول الظلام .. وحيث تعودت أن أعيش حياة بدائية كحياة منتصف القرن العشرين الماضى ... ورحت أدخن سيجارا كوبيا ضخما تماما كما كان يفعل أهل زمان بدلا من استنشاق غازات اليوم الكيميائية المركبة باهظة التكاليف .. وأخذت أراقب صفحة اليم تمتد قبالتى صاخبة .. معتمة .. ورحت أسرح بخواطرى عبر أمواجها المتلاحقة إلى مالا نهاية ...

رباه .... هل كانوا فى عجلة من أمرهم إلى هذه الدرجة ؟

فبينما أنا غائص فى كرسى العريض .. ووجهى يأخذ اتجاه البحر . وأذنى تسجل ما تنقله علبة معصمى من اعلان ناطق للوقت حسب مسجلات الوقت الكونى بالقطب الجنوبى .. إذ ببصرى يعلق ببقعة مضيئة برزت من عدم .. لتأخذ فى التلألؤ والتكبر على وجه المياه المتغير .. ثم بغتة يتضح الجسم المستدير بأكمله .. تنفلت من أسفله ومضات الطاقة التى ألقت أضواءها على الموج بلا صوت على الإطلاق ...

الآن هاقد أتوا بالفعل .. بدعوة صريحة منى ...

والآن يصبح النكوص ملويا .. يصبح مستحيلا ...

يالعجبى .. اين تتوارى هذه اللحظة الشجاعة التى طالما ملأت جوانحى ونفخت أوداجى ورفعت أنفى شامخا .. ولم الهاتف الذى يتهمنى بالحمق والجنون وأنا أوشك على تسليم نفسى إلى.. مجهول.. محال أن أجزم بأنه ليس ضارا .. ولامهلكا .. ولا قاتلا ...

على أننى عجلت بتنحية مخاوفى جانبا ..

اعتدلت على كرسى .. زفرت آهة ارتياح .. ثم فى سكينة واستسلام تشاغلت بتأمل الجسم المعلق بعيدا عن رمال الشاطئ بنحو ارتفاع بناية من طابقين .. والذى لم يخالجنى أقل شك فى كونه طبقا طائرا نموذجى المواصفات...تهادى الطبق فى اتجاهى حتى أصبح على بعد أمتار قليلة .. عندئذ جمد تماما على ارتفاعه السابق فى الجو.... وفى بطء فى المبدأ ثم فى إيقاع أخذ يتسارع تعالى طنين صحبه انبثاق لسان من بريق مزرق .. راح يلف بحافة الطبق الدائرية وينير معالمه .. متيحا لى مزيدا من الرؤية .. ومزيدا من الملاحظة والتفحص ...

كان الطبق رماديا .. أوهو بين الرمادى والبنفسجى .. كامل الاستدارة .. أحسست انسيابية سطحه ونعومتها عن بعد .. وكان يماثل فى الشكل طبقين انكفأ أحدهما على الآخر.. وقدعلا مركزهما

انتفاخ لاريب من احتوائه مقر القيادة أو كابين التشغيل .. أما قطر الطبق فقد خمنت أنه يقارب ثلاثين مترا و أما سمك حوافه فهو قرابة المترين . . لكننى لم أشاهد أية نوافذ أو فتحات فيما يقابلنى منه ...

كما لم أشاهد كائنات . . أو حتى ظلالا لكائنات من أى نوع على الإطلاق ...

وفاجأنى الطبق الطائر بانفصال منصة مربعة من أسفله . . أخذت تتهادى هابطة إلى أن استقرت فى منتصف المسافة بينى وبين خط المياه المالحة . . ورغم لهفتى فلم أشاهد كائنا ما حتى ولو آليا يغادر الطبق.. وإنما سلط على مباشرة ضوء كشاف قوى...

وتحرك ضوء الكشاف فى مسار من مجلسى إلى حيث تستكين المنصة على الرمال المنداة ...

وفهمت المطلوب منى ...

فلم أدر كيف أسرعت بإغلاق منافذ دارى .. وكيف تقدمت فى عصبية إلى المنصة وكيف اعتليتها فى شبه تشنج .. حتى ارتفعت وانشفطت بى إلى بطن الطبق ...

وسرعان ما وجدتنى فى النهاية أجلس منكمشا وسط أكبر حشد من الآلات والعدد والمفاتيح واللمبات الضاوية بشتى الألوان..

فى حين لا يصلك سمعى غير تردد أنفاسى الواهنة .. أما الجدران الملساء المحيطة فى نقاء الفضة وبريقها فقد بدت خلفية تلائم غرابة المكان لأقصى حد ...

من منفذ جانبى أقبل جسم معتم قصير .. تلاه جسم ثان وثالث ورابع .. ثم تهادى وراءهم جسم أطول وأكثر ليونة .. اتجه جسمان إلى اليمين .. فى حين اتخذ التاليان لهما موقع اليسار .. وقد أفسح أربعتهم مكانا وسطا احتله الجسم الخامس . . الذى أومأ بقمته العلوية فاستكان أوجلس الكل فى مواجهتى ...

أظن انهم كائنات أربعة تتوسطهم الزعيمة .. وهى أنثى .. عموما سأتبين الحقيقة متى خلعوا الأقنعة والأردية التى تخفى تكوينهم أو متى أخبرونى هم بذلك التكوين ...

على آية حال فعلى غير ما توقعت لم يصدمنى شكلهم . . ولم تثر فى تصرفاتهم انفعالا كبيرا .. بل بدوا أقرب للتوقعات العلمية التى طالما قرأتها وتفحصت جوانبها أو استمعت إلى شروح المتخصصين حولها ...

ومن خلال الألفة التى غمرتنى لاحظت غلظة سمك أرديتهم تهل هى نوع من اللدائن الراقية .. وأقنعتهم أهى مصفحة أو مقواة برقائق معدنية .. وما هذه العدسات الست بانتفاخ القمة لدى كل جسم .. أهى لتوضيح الرؤية .. بل هذه القمة ذاتها .. بالتأكيد إنها الرأس المفكر لديهم ؟

وتنبهت إلى أننى كنت بالتالى موضع فحص دقيق لثلاثين من العدسات الجاحظة المركزة على سحنتى . . وان الاستغراق والقلق يعمان حركاتها الحادة والتى تشمل كل جزء فى . . .

وزاد تخبطى فى أسئلتى لنفسى .. لكن أين هى أنوفهم وأفواههم وآذانهم . . ولم لاتحمل أطرافهم أصابع تماثل أصابعنا بدلا من تلك القفازات الخشنة الشبيهة بالكلابات؟ولم أحذيتهم حديدية ثقيلة وان لم ألحظ أدنى صوت لوقعها على أديم الطبق لدى مقدمهم ؟

« أيها السيد — يا — ابن — كوكب الأرض — نحن — ملاحى السفينة الكونية — نقرؤك — التحية — — »

تلفت ورائى إلى حيث جاءنى الصوت مقطعا ركيكا . . .

«لا—أنا — هنا أمامك—أنا — الأوسط— اتحدث إليك — داخليا — عبر — مذياع الجهاز — الجاثم — وراءك — » أعدت رأسى ثانية فى ذهول .. تمتمت بنبرات تكاد لاتسمع إلى الزعيمة فى الوسط...

— كيف . . كيف تكلمنى ياسيدتى . . داخليا ؟

على الفور رد الصوت من ورائى . . بينما الطبق الطائر ينسحب اماما فى اهتزاز طفيف فأبذل جهدا للتشبث بمقعدى خشية السقوط لتخلف . . .

« التفاهم — بيننا — نحن المخلوقات — الوافدة — إليكم — يتم بطريق التخاطر — والجهاز — وراءك — يحول — الموجات الفكرية

إلى كلمات ـ وقد ـ ابتكرناه ـ خصيصا لمخاطبتكم ـ بعد ـ جهد مضن ـ بذلناه ـ لفك ـ طلاسم ـ عدد ـ من ـ لغات الأرض ـ لغتكم بينها ـ ـ ـ ثم ـ إنى ـ ذكر ـ فانا ملاح السفينة الأول ـ وعلى ـ جانبي ـ مساعداى ـ وهن ـ أناث ـ والخلط الذى ـ وقعت ـ فيه ـ سببه ـ اختلاف ـ تكويننا ـ عنكم ـ ـ »

همست مشدوها : فمن .. أنتم ؟

« ملاحون ـ كونيون ـ من ـ أبناء الكوكب ـ « نوش » ومعناها بلغتكم ـ الوحيد ـ أو الفريد ـ ومصدر الاسم ـ اعتقاد قديم ـ بانفراد كوكبنا ـ باحتوائه ـ مخلوقات عاقلة ـ فلم نكتشف كوكبكم ـ أو أرضكم ـ التي تقبع بمجموعة ـ نجم الشمس ـ لدى ـ حافة ـ قرص مجرتنا ـ المشتركة ـ سكة التبانة ـ البالغ ـ عرضها ـ مائة ألف سنة ضوئية ـ إلا مؤخرا ـ منذ ثلاثة أحقاب ـ نوشية ـ ـ كما لم نكتشف ـ مخلوقات ـ عاقلة ـ على الكوكب الآخر « عندوك » ـ بمجموعة النجم ـ الخابى ـ إلا منذ حقبة نوشية واحدة ـ ـ »

فى مواجهتى أضيئت تلقائيا خريطة كونية تضم ما يماثل التقاطا مصورا بارزا أخذ لمجرتنا من فوق .. وقد أشير عليها بواسطة خطين متقاطعين مبرقين إلى موقع كوكب الأرض .. كما أشير بنفس العلامة إلى موقع كوكبهم الأسفل من موقعنا .. وأما الكوكب

المسمى « عندوك » فقد استقرت علامته فى الطرف المقابل من حافة قرص المجرة . . . .

فى حين استرسل الصوت من ورائى . . .

« وها — نحن — قد — قدنا — سفينتنا الكونية — « حجر السماء » — — طيلة — ألفى — ساعة — من زمن ساعات — توقيتكم — حتى — وصلنا — كوكبكم — — »

عندئذ رحت أحسب برغمى وعينى على الخريطة المضيئة : كوكبكم يبعد عن أرضنا بنحو . . بنحو ٦٠ سنة ضوئية حسب مؤشرات الخريطة الحية . . فهل لدى طبقكم .. أقصد سفينتكم المقدرة على الملاحة الكونية بسرعة تفوق سرعة الضوء . . حتى يكفيكم ثلاثة شهور أرضية لبلوغ كوكبنا . . وهل . . . .

قاطعنى الصوت برفق . . .

« هلا أرجأنا — الأسئلة — والاستفسارات — إلى — ما بعد — — سنجيبك — عما تريد معرفته — — وبإفاضة — — فقط — دعنا الآن — نتناول — المهم — الذى دفعنا — إلى — قطع — كل هذه المسافة — من الكون — لنأتى إليكم — — »

منذ ولجت الطبق الطائر وجابهت المرئيات المذهلة بداخله وكل خلية فى جسدى تتوقع المزيد من المفاجآت والمزيد من الانبهار . لكن أبدا لم أكن أتوقع ما أخذ الصوت يصبه فى أذنى .. فى طبقات نغم تتفاوت بين الحدة والخفاف والوهن المفاجئ المؤدى إلى التلعثم فالهمس أو الفحيح . . . .

« إلى جانب صفاتنا – كملاحين – كونيين – فنحن كذلك رسل – مبعوثون – من – قبل – مجموعة حكام الكوكب – ش – – »

تمتمت لنفسي : رسل ؟ لماذا ؟ ؟

« لدينا – تحذير – من أجل – مشروعكم القومي – لإقامة – أول – حاسب الكتروني – مطاع – – »

أطلقت صيحة مكتومة : تقصدون . . عقل العقول ؟

دوت الإجابة « هو كذلك – – »

– تقصدون .. ذروة وخلاصة الفكر الإنساني .. العقل المركزي الأعظم . . الذي بدئ في تشييد مبناه المجمع ذي المائة طابق والألفي قاعة.. بقلب دلتا الوادي الجديد .. من أجل إسعاد كافة المصريين.. وقريبا .. حين نشيد أمثالا له بأنحاء كوكبنا . . من أجل إسعاد كافة سكان الأرض . . . .

قاطعني الصوت بغضب هذه المرة .. بل شابت نبراته المرارة والقرف .....

« هو – لن – يسعد – أحدا – – »

هتفت في دهشة وحنق صادقين : يا إلهي .. كيف ؟

في بطء استقام الجسم القصير التالي يمين قائد الجماعة أو ملاح سفينتهم الأول والقابع وسطهم .. انحنى الجسم القصير في مواجهتي .. جلس

ثانية.. ومرهان ماتعالى صوت مختلف فيه رقة .. وعذوبة .. وفيه أنوثة دافقة محيرة ...

« أمخاخ الكائنات — الأرضية — بدأت — منذ أول نشأتها — متساوية — أو متشابهة — ثم تدرجت — بعض الكائنات — واختلف — البعض الآخر — فى — أسلوب — معيشته — عن بقية الكائنات — الحية — وفى الوقت — نفسه — بما يلائم — تسيده — وبروزه — على — ماعداه — من مخلوقات — ودواب — — »

استقام أيضا الجسم القصير التالى للقائد يسارا .. وانحنى لى .. وجلس .. ليلعلع صوته أو الأصح صوتها .. فى عذوبة أكبر .. وفى نبرة حالمة زاخرة بالمعطيات ...

« لكن — ظلت — غالبية — أمخاخ البشر — ولا تزال — دون — الكفاية المطلوبة — ودون النبوغ الأمثل — وبدلا من تنمية هذه — الأمخاخ — استعيض — عن — ذلك — بإلحاق أمخاخ أخرى — صناعية — بها — — »

همست : الحاسبات .. أو العقول الالكترونية ...

« تماما — — فأنت — يا — قاطن الأرض — الا — تعتمد — على هذه — العلبة — المقيدة بمعصمك — والتى — تحتوى — أكثر — الآلات — دقة وتعقيدا — »

حط بصرى على العلبة الفضية التى تزين معصمى فى موضع ماكانت

تشغله الساعات من المغاصم البشرى الاجدادى .. كدت أحتضن العلبة بنظراتى رغما عنى . . وتخيل إلى أننى لم أكن ألم بمدى خطورتها قبلا .....

— آه المرشد الالكترونى المرافق ؟؟ صحيح .. نحن أهل الأرض انما نعتمد عليه إلى حد كبير ....

« بل العلبة — عصب — الفرد — منكم — فى معظم تصرفاته وقراراته — أن — لمسة — لواحد من أزرارها — تمده — بإجابات — فورية — عن الطقس — جغرافية المكان — خط سير الصاروخ — أقرب فاحص آلى للصحة — أوجراح آلى لقطع الغيار البشرية — الصيدلية — المركز الغذائى — المجمع التعاونى — — أليس — كذلك

— بل — إن — تحديقة — من عينك — أو لمسة — من طرف لسانك — لكفيلة — بأن تعطيك — علبتك — قرارا — بحالتك البدنية قبل عرضها — على الفاحص — الآلى — فتمدك — بعدد دقات القلب — ضغط الدم — التنفس — كفاءة الكليتين — حرارة الجسم — الوزن — نسبة السكر والأملاح فى الدم — التوازن العصبى — نشاط الغدد — كهربائية الجسم — الخ — الخ — — »

حاولت المكابرة : الذى تذكرونه أمر واقع .. لكن ....

عاد صوت الملاح الأول يقاطعنى من خلف فى أناة ...

« علام — الاعتراض — والحقائق واضحة — الأفضل — أن —

تستمع — إلى — قصة شعبنا — وما — جرى — لحضارتنا — على — ظهر — كوكبنا نوش — — »

وتكلم صوت أنثوى جديد .. ثالث .. رخيم .. ناعس .. يقطر حلاوة غير أرضية .. بينما هو أكثر وضوحا وجلاء فى نبراته المنسالة فى ذوبان وكثافة العسل المصفى ....

« إن حضارتنا — النوشية — تسبق — أولى حضارات كوكبكم — بتسعة — آلاف — عام أرضى — وبالطبع — عرفنا — نحن الحاسبات — قبلكم — بأمد طويل — وقد شابهت — مراحل — الاكتشاف والتطور — لهذه — الآلات الأسطورية — نفس — مراحل — تقدمها وتفوقها — لديكم — — — جيل بدائى من الحاسبات — يختزن — مائة كلمة — تلاه جيل ثان — يختزن — كتاب من مائة صفحة — فجيل ثالث — يختزن — مجموعة من مائة كتاب — — ثم الف كتاب — — فمليون كتاب — — — وبمرور الوقت — استوعبت — ذاكرة — الحاسبات — العملاقة — ملايين الكتب — — فهل توقف — طموح — مصممى الحاسبات — عند — هذا — الحد — من — التفوق — الخرافى — — »

تساءلت . . وجسم الطبق الطائر يهبط إلى أسفل فتكاد معدتى تنطبق على عنقى بحنجرتى .. وتكاد أذنى تصرخان ألما ....

— وهل يصل مدى .. الحاسبات .. إلى أكثر من ذلك ؟

لم تجبنى أية أصوات على تساؤلى .. بدا أن هناك ارتباك من نوع

مايسود هذه الأجسام أو الكتل المعتمة القابعة فى مواجهتى .. لكن الطبق استقام .. والصوت الأنثوى الأول تكلم .... صدر عنه أزيز غامض .. ثم ألقى إلى سمعى بكلمات عربية مفهومة ....

« فى المبدأ — لم — تكن الحاسبات — لدينا — تتخذ أية قرارات — هى — مجرد — آلات — صماء — تنفذ — تعليمات — مصممها — وكلما — كانت — الآلة — أقل غباء — تعين — أن يكون — سيدها — أكثر ذكاء — لكن — المخلوق — كسول — بطبعه — يشكو الإرهاق — الملل — بطء الاستجابة — الاعتماد على الغير — وهكذا — جيل وراء جيل — تفوقت الحاسبات — فى — العمليات الحسابية والتنظيمية — وحفظ المعلومات — وسرعة إعطاء الآراء — والنصائح — والحلول — وكانت تتصرف — من منطق — الكبرياء — والتعالى — فهى — لا — تخطىء — أبدا — — »

ماالذى يهدف إليه هؤلاء القادمون من الكوكب « نوش » ؟ ولم أعد أملك السيطرة الكاملة على أعصابى .. فانطلقت الصيحة غامضة .. وحشية .. من فمى المزموم عن آخره .. بل أظننى لوحت بطول ذراعى مهددا منذرا ....

— الحاسبات لاتخلق ولا تبتكر ولا تبدع .. وهى لا تملك المشاعر والأحاسيس على الإطلاق ....

فى منتهى الهدوء والاتزان أجابنى الصوت الأنثوى .. « وهنا — بالتحديد — يكمن — سر — قوتها وتفوقها — — »

— كيف؟

« الحاسب الالكترونى — مماثل — محطة — توليد — الكهرباء — محطة الكهرباء — تولد — طاقة الكهرباء — والحاسب — يعطى — طاقة المعلومات — التى نستخدمها — فى الأعمال — الذهنية — — ولأن — أثر — المعلومات يفوق — أثر — الكهرباء — فإن آفاق — الحاسب الألكترونى — وإن بدت طيعة — فهى — أيضا — عريضة — دافقة — مهولة — وخطيرة لأقصى حد — — »

ولم أتوقف عن هجومى : أبدا لن أعترف بتفوق الآلة على صانعها .. بل خالقها وسيدها ....

« وما — رأيك — وهذا خبر قديم — نشرته — صحفكم — عن الحاسب — الذى — هزم — صانعه — فى لعبة — الشطرنج — رغم أن صانعه — هو الذى — خطط — له — برنامج اللعبة — — »

وأضاف الصوت الأنثوى الثانى على يسار القائد ...

« بل — إن — حاسب — أو عقل — متوسط — القدرات — بإمكانه — أن — يحل — مسألة حسابية — فى ثوان — بينما — أعظم — عبقرى — يحتاج — لحل — نفس — المسألة — إلى مائة يوم — — »

قارب مخزون الصبر لدى على النفاد : لنقسر الكلام حول ماحدث لكم .. للحضارة .. النوشية ؟

« جيل – وراء – جيل – والحاسبات – تتغلغل – إلى كل شبر – فى حياة – الشعب – النوشى –– فمن الحاسبات العملاقة – إلى حاسبات المعاصم – وحاسبات الأصابع – على هيئة خواتم – إلى الحاسبات – على هيئة – حبة الأرز – إلى الحاسبات المشتركة – فالحاسبات المركزية – فالحاسبات القارية ––– وسيطرة الآلة – الأسطورية – آخذة مداها – لكن – فيما – بعد – وقد تم – اعتمادنا – كليا – على – الحاسبات – بل – سمه – اعتمادا نهائيا – فماذا كانت النتيجة –– »

– فماذا كانت ؟

« لقد – فقد – النوشيون – القدرة – على العد – وعلى التصرف – واضمحلت – طاقاتهم الذهنية – بينما – ازداد اعتمادهم – على – الآلة – وأصبحوا – صاغرين – حيال – قدراتها – وأوامرها – بل – تحولوا – عبيدا أذلاء – خاضعين – لتصرفاتها – وأحكامها – ورقابتها الصارمة –– »

تخيلت بشاعة الصورة فمددت كلتا يدى أهزهما فى استنكار..

– لا ... هذا فوق كل احتمال ...

« بل – لقد – تعرضنا – لما هو أشد هولا – فبعد – تفوق – الحاسبات – على – الأمخاخ النوشية – استقلت – عنها – وانفردت – بالسيطرة الكاملة – على – مخلوقات – الكوكب –

وعلى — مقدراته — وكانت قبضتها حديدية — تخلو من — المشاعر —فلم— تعرف— الرحمة — — ومن ثم — بلغت— ذروة — تفوقها — وتسيدها — — »

—و .. وماذا أيضا ؟

«راحت— هذه — الآلات— العجيبة—تعلم — نفسها — ثم — أخذت تعدل — فى برامجها — وأنظمة — تصنيعها — حتى — حتى — — »

— حتى ماذا ؟

« حتى توصلت — إلى — صنع — أجيال — مستقلة — من — العباقرة — الآليين — — »

عندئذ قفزت واقفا .. وبسطت كفى أماما أستوقف الكلمات السخيفة عن الاسترسال.. أى مداول ساذج تهدف هذه الكائنات أن تزرعه فى تجويف رأسى .. وغمرنى تيار من ماء يغلى ووجدتنى أرفض ما اصبوه فى أذنى بغرض تحويله .. إلى ..يقين.. إلى واقع..

— إن احتمالات تحقيق الصورة الكئيبة التى وصفتموها..على ثرى كوكبنا . . احتمالات بعيدة .. والأصوب أن أقول خرافية ... فإن سيطرتنا على حاسباتنا كاملة .. وستظل كاملة ...

انتصب الكائن الأوسط.. الملاح الأول .. ببطء تحرك قبالتى وعدساته الستترميني خلسة بما يشبه نظرات الإشفاق أو الرثاء...

« إن مشروعكم — القومى — لإقامة — العقل الألكترونى — الأعظم — — هو بداية النهاية — لكل سيطرة — لكم — عليها — »

— المشروع إنجاز مهول فى خدمة الإنسان .. لإكمال راحته وسعادته ....

« أى — سعادة — أن— تتحكم الآلة — فى— كل — كبيرة — وصغيرة — تخص— حياتك — عواطفك—أحاسيسك — حتى الفكرة — الخفاقة — التى تعبر — خلايا — مخك — — صدقنى — ليست — سعادة — بالمرة — أن تتحول — أنت— إلى — آلة — بينما الآلة — قطعة المعدن — تصبح — بالنسبة — لك — — المحرك — — »

اهتز بدنى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى وأنا أتساءل فى قنوط :

وما العمل .. ما العمل ؟

« أن — تفعلوا — ما — فعلناه — — »

— قل بسرعة ....

« لقد — ثرنا — ثورتنا— الكبرى— على الحاسبات المركزية — والقارية — ومن ثم — دمرناها عن آخرها — — »

— معنى ذلك .. أن نوقف مشروعنا القومى بالوادى الجديد .. ومعناه .. وهذا خطير للغاية .. أن ندمر الحاسبات الأخرى الأقل فعالية من الأعظم .. ولو فعلنا .. فإنها نكسة وردة إلى الوراء تصيبنا فى الصميم وتهدد بتقويض حضارتنا ...

« بل — إنه — الخلاص — لكم — ولمستقبلكم — — »

أشرت بإصبعي فى انفعال بالغ نحو كوة بجدار الطبق: وهؤلاء أهل الأرض .. أهلى .. كيف يكون إفهامهم ومن ثم إقناعهم ... ؟

« ستكون — أنت — الواسطة — بيننا — وبين — قومك — — »

— أنا ؟؟؟ ... صدقونى إن أحدا لن يلتفت لكلماتى .. ولن يقتنع بها على الإطلاق ...

« سنساعدك — — »

وفى الحال واحدة فى أعقاب الأخرى انسحبت الأجسام الأربعة.. تاركين قائدهم وإياى وحدنا .. بينما تدور فى أعماق دوامة من الأوجاع المتلاحقة .. حقا .. إن جميع استثمارات الدول تتجه مؤخرا .. وفى شراسة .. إلى مزيد من الآلات .. وهذا يعنى السيادة للآلة وعلى رأسها الحاسبات .. ويعنى فى نفس الوقت صراعا دائما يحتد بيننا وبين الآلة .. وهو ما يضع هذه الحضارة التى نعيشها فى أزمة لاشك فيها ...

وتقدم القائد بجسمه المعتم الفارع والمتناسق رغم تموه تفاصيله خلف اللدائن والرقائق المعدنية.. تقدم فى اتجاه لوحات الآلات الضاوية.. وتوقف قبالة مجموعة منها .. واختار زرا ضغطه فى ثبات ...

« اتعرف — — بكيفية ما — هى الخلاصة — أو القمة — فيما — توصلنا — إليه — من — علم — ومعرفة — — وما تطلقون عليه

تكنولوجيا ـ بكيفية ما ـ سوف ـ نوقف ـ فعالية ـ كافة ـ ما بأنحاء سطح كوكبكم ـ من حاسبات ـ الكترونية ـ من مختلف ـ الأنواع ـ والأحجام ـ ؟ ـ » .

ـ أهذا بمقدوركم . . . حقا . ؟

« عن طريق أجهزتنا الليزرية ـ هذا ـ متيسر ـ لمدة ـ ساعه ـ زمنية ـ واحدة ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ »

وبينما تتكشف أبعاد من زجاج شفاف لنصف كرة معدنية ضخمة برزت من جوف الحائط إذ بالصوت المقابل يواصل حديثه فى جدية واهتمام وقد تعالى عن بعد ما يماثل رنينا هادئا لطبل أجوف ... « عبر ـ هذه ـ العين الكونية ـ ستتابع ـ سويا ـ توقف الحاسبات ـ لديكم ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ »

ووسط الإيقاع المنتظم الآتى من بعيد راح نصف الكرة المعدنية يحمر ويحمر .. ثم بغتة . . أعطى المنظر البانورامى الساحر لمساحة الجانب من كوكب الأرض الذى يعلوه الطبق الطائر.. فبدت الاجزاء الشمالية الشرقية من قارة أفريقيا.. تتوسطها التضاريس المصرية .. بمجرى النيل والدلتين الشمالية والغربية ... وبالرقعة الخضراء تحدها الغابات الكثيفه .. وقد انفرشت غربا وإلى الجنوب مكان ما كان يعرف فى القرن العشرين الماضى ـ بالصحراء الكبرى .....

كما اتضحت يمينا أطراف من قارة آسيا . وشمالا شريط رفيع من حوض البحر المتوسط ...

وتحول رنين الطبل الأجوف إلى إيقاع متقطع عميق .. يشبه إعلانا لتوقيت زمني .. راحت نغماته المؤثرة تتجمع من مكامن مبهمة بجدران الطبق الطائر...بيب ...بيب ..بيب...
وما أن ضغط الجسم المعتم زرا آخر وربما زرين حتى اندلعت تلقائيا كلمات تترى في سرعة محمومة مجنونة تعبر في لهف .. عن أكثر أحداث كوكب الأرض إثارة وسخرية ومجونا ......

(الآن ..ن ..ن ..توقفت .. كافة أجهزة الحسابات..ت..ت.. الالكترونية ..ية ..ية ..وتجردت من كل ..كل ..فعالية لها .. ها .. ها .. ..)

وفي انبثاق نافورة البركان وزلزلة الأديم حول جوانبه .. تلاحقت الأصوات بكلمات عاجزة مضغوطة تتسارع ..وتتداخل.. حتى تكاد تكون في النهاية عجينة لغوية ممطوطة .. ممطوطة .. لكنها تسرى وتندلع في عنف النيران ووحشية الحريق .... (عواصم الدول ومدنها الكبرى ..والصغرى ..رى ..رى .. ومابينها .. وعبر أنحاء قارات آسيا وأفريقيا يا ..يا..وأوروبا والأمريكتين واستراليا والجزر..ر ..ر والمنطقتين المتجمدتين..

.. ن .. ن .. قد شلت الآن .. كافة .. قنوات المرور بها تماما .. ما .. ما ....)

حدقت فى المنظر البنورامى المنفلت إلى ماتحت عينى مباشرة.. حتى احتوانى فظننتنى أتنفس جاهدا بداخله .. ونسيت المسافة الشاسعة التى يبعدنى إياها الطبق الطائر عن أديم اليابسة ...

وأجلت بصرى الزائغ مرات فى أنحائه.. بينما يهبط المنظر أو ينفرش ليتم التركيز على منطقة بعينها فيقربها منى شيئا فشيئا حتى تحتل الجزء من الكرة المعدنية المقابل لى ...

آه .. هذه قاهرتنا .. عاصمة مصرنا .. تتدانى فى متناول قبض أصابعى وقد استكانت ..وصمتت .. وكفت عن الحركة كلية ... وازداد المنظر تفصيلا .. وتوغلت ببصرى أكثر بامتداد شوارع العاصمة وطرقاتها ..آلاف من سيارات الكهرباء الانسيابية والحوامات وبعض نماذج سيارات القرن الواحد والعشرين المتأخرة وما بعده .. قد تسمرت الآن .. الواحدة فى ذيل الأخرى .. مجرد جثث معدنية هامدة تشكل طوابير طويلة ..عديدة ..متفرعة ..بتفرع الطرقات التى تأويها ....

وأفقت على كلمات جديدة تتلاحق ......

(قد كفت كذلك .. الك ..جميع ..خطوط ..السكك الحديدية

المعلقة ..قة ..قة ..وقطارات الرصاصات الحية فى الانفاق ..ق ..ق ..والقطارات الصاروخية الجوية ..عن السريان ..ن ..فى خطوطها ....)

ولم يكد نصف الكرة يحمل منظراً لمترو الأنفاق وقد تيبست قطاراته الكهربائية بطول المسافة بين القاهرة والاسكندرية ... حتى اندفعت العجينة اللغوية المطوطة تصرخ بمشاهد أخرى... لعديد من كوارث النفاثات الأسرع من الصوت ثمان مرات .. الكلمات تترى والمشاهد تلاحق الكلمات .....

(لقد نجا من النفاثات من ظل منها بالمطارات ..ت ..ت..كما .. هبطت اضطراريا أعداد وفيرة منها وافلتت بأعجوبه..به..به.. فى حين سقطت وتهشمت ثمان عشرة نفاثة ..أما الأقمار الصناعية..الملايين منها.. فهى خارج مجال القبضة النوشية الليزرية ......)

همست لنفسى : قد خلت السماء من النفاثات..لتمرح عبرها الطيور بلا شريك كما كانت تفعل قديما قبل معرفة الطيران ؟

(والمصانع كلها.. بأركان عالمنا هى متوقفة اللحظة..بالمتعدد من أنواعها وأحجامها .. لاتشغيل ولا إنتاج إطلاقا .. ولا جدوى من محاولات تحريك ترس واحد فى أى منها . . .. ها .. ها ......)

هذه المرة علق صوت القائد ..الملاح الأول..فى سخرية واضحة..

«بمعايير كم ــ الحالية ــ عام ٢٥٠٦ ــ فان ــ ساعة ــ واحدة ــ
توقف فيها ــ مصانع ــ كوكبكم ــ تعنى ــ خسارة
مادية ــ لا تقل ــ عن ــ خمسين مليارا ــ من ــ
جنيهاتكم ــ الورقية ــــــــــ »

وتلاحق مزيد من الأخبار ..من الكوارث.. من المنحة الوقتية للحاسبات ..وللبشر ......

(المدارس .. البنوك ..المكتبات العامة .. الوزارات... المصانع والهيئات ..المستشفيات.. كل عمارة وكل مبنى .. وكل دار.. وكل حيز يمكن أن يضم حاسبا اليكترونيا .. ولو فى حجم حبة الأرز ....)

ولأننى كنت أركز بصرى وأعيش الأحداث التى أراها بكل ذرة فى مشاعرى فقد باغتتنى الصيحة من ورائى وألقت بى فى هوة لا قرار لها ...

« ياه ــ انظر ــ انظر »

ودفعت ببصرى فى مزيد من الحدة والتعمق .. وانخلعت عينى عن محجريهما ...

(العاصفة البحرية الجبارة .. لا .. بل الأعصار العملاق .. المدمر .. ر .. ر..لقد باغت الشواطئ الشرقية للقارة الأمريكية..

دون أى رصيد من إنذار .. مسبق .. ق .. ق ....)

همهمت وكل خلية فى جسدى تتقلص وترتعد ...

تحت ضربات موج عات ورياح وهمية تجتاح أنحاء بدنى فى كابوس يقظة مخيف ...

- محطات الأرصاد قد كفت هى الأخرى .. أى ساعة غفل عنها القدر تسبب كل الهول الذى أراه ؟ لكن القائد النوشى لم يهملنى ...

« بل - قل - إلى أى مدى - وصل - اعتمادكم - على - الآلات الجهنمية - فى - صورة - أزرار للسعادة - بحق الحكم الأوحد - الا - دققت - النظر - لمداه - فيما يقابلك ----- »

وانهرت .. لم أكن فى حاجة لمزيد من التحديق .. .. شرفات المنازل .. الأرصفة والميادين .. الحدائق والمنتزهات . . وحتى الطرقات الجانبية والأزقة ورقاع الأرض الفضاء والخربة والبعيدة عن العمران .... شاهدتها تمتلئ بملايين الأجساد المحنية .. المتهدلة وقد علتها وجوه صفر يحط عليها الوجوم .. والحيرة .. والعجز التام ...

« والآن - هل تسلل بصرك - مع - تسلل - العين الكونية - إلى - داخل - ذلك المبنى - الزاهى الطلاء - - - »

ولمحت بداخل القاعة الواطئة السقف عشرات من الشباب ..

فتيات ذهبي الشعر وصبية مفتولى العضلات بريئي النظرات .. فى أعمار بين العاشرة والخامسة عشرة .. وقد حملتهم بالكاد مقاعدهم الرغوية الوثيرة .. بينما يقيدهم كم مهول من الصمت والضياع ... ولم يصعب على معرفة المكان . . فالمشهد إنما يتداعى بداخل « الوحدة الاستشارية للحب . والزواج . والانجاب – بالمعادى » فقد ولجته أنا نفسى مرارا من قبل .. وهل أنا إلا واحد .. فرد .. ينتمى لعجلة البشر التى تلف سطح الأرض .. وقد استسلمت منذ أعوام بعيدة إلى قرارات وأوامر ونواهي تلك الآلات الوادعة .. الجذابة .. دون أدنى وقدة من تفكير يقظ ...

(الآن :. الآ ن . . انقضت ساعة الزمن . ... وتعود ... كافة الحاسبات . . إلى سابق . . فعاليتها . . وتشغيلها . . . .)

وخيم على الطبق الطائر صمت مطبق عميق ...

وامتد الصمت إلى خارج الطبق .. وسرى فى أنحاء الكون وجوانبه القصية ...

* * *

أرحت أصابع يمناى على مقبض مقعدى ذى الوسائد المدفئة وباعثة اهتزاز إزالة التعب والتوتر البدنى .. وبسبابتى أدرت مفتاحا بطرف المقبض . . فانطلق المقعد يلف بى حانيا فى دائرة كاملة بينما لا أزال .. رابضا .. فى موقعى بوسط القاعة ...

كنت قد فرغت لتوى من سرد قصتى مع الطبق الطائر وأصحابه رسل الكوكب « نوش » كما يسمونه .. وقد فعلت ذلك ربما للمرة الخمسين منذ رحلتى الغريبة معهم قبل ستة أيام ... لكن

هذه الجلسة تميزت عن سابقاتها بوجود كل هذا الحشد من أهم رجالات مصر .. والذين أحاطوا بى يملؤون أضخم قاعات مبنى قيادة عمليات الحاسبات الألكترونية الاستراتيجية بهضبة وادى حوف ...

ومع دوران المقعد حول نفسه رحت أتأمل وجوه المحيطين بى وأدرس تأثير كلماتى عليهم . . يا لعجبى . . . . لو استبدلت أبسطة القطر الاسفنجى التى تفترش أرضية القاعة بشئ مختلف .. لو كانت رخامية مثلا .. وأسقط عليها دبوس . . لتعالى له رنين ضخم مروع ...

هكذا استكانت الجموع المحيطة بى من الخبراء العسكريين وعلماء الفضاء والدفع الصاروخى والملاحة الكونية والتسلل فيما وراء الزمن .. ورجالات الفكر والسياسة والأدب والفن.. وممثلى الصحافة ووكالات الأنباء المقروءة والمنطوقة والمرئية ومندوبى البث التليفزيونى التقليدى الملون والتخاطرى المجسم ....

استكان الكل .. تجمدوا أو تحجروا أو تحولوا إلى تماثيل من شمع تكتفى بالحملقة دون أن تملك القدرة على التفوه بحرف .. ورأيت أننى يجب أن أهز هذه التماثيل من أساسها.. حتى لو كسرت بعضا منها ...

أطلقت حنجرتى فى قوة : الآن .... ألا يتفضل أحد علمائنا بإبداء رأيه ؟

لم يتقدم مقعد بحمله عبر واحد من الأشرطة الأرضية المغنطة .. ليستقر بوسط القاعة إلى جوارى فيرينا ما تجود به قريحته ... عندئذ عدت أرفع عقيرتى إلى حد الصياح ...

– بقيت كلمة العلم يا سادة ...

لكن لا حركة ولاصوت .. وإنما ارتجت القاعة للمرة الثالثة بصوتى الجهورى .. الخانق ...

– هل ندمر الحاسبات .. أم نبقيها ؟؟؟

اتساع القاعة مائة وثمانين مترا مربعا .. وقبتها البلاستيكية الرائقة تعلو خمسة وعشرين مترا أخرى .. وتحت قبة القاعة التى يحملها سبعة أزواج من أعمدة لدائن الفسفور المشعة بالألوان المتغيرة .. كانت تستقر نحو ألفى رأس بشرية .. ومع أن واحدة منها لم تتحرك إلا أن الهمسة الخافتة التى طيرتها أنفاس الجموع .. كانت كفيلة ببث طاقة مخيفة فى أبدانهم ...

« بل .. ندمرها ... »

التفت فى اتجاه الهمس .. تشبثت بمقبض المقعد الدوار ورفعت قامتى قليلا للأمام ...

– القول .. أهو عن اقتناع .. أم صادر عن خوف من إنذار النوشيين لنا ؟

– لا .. لا .. الحاسبات توشك أن تتفوق علينا ...

– لقد تفوقت بالفعل .. وتسيدت...

– وفقدنا نحن العديد من قدراتنا ...

– وقد نتحول .. كما يقول النوشيون .. إلى عبيد لها ...

لم أدر .. هل استحسنت الكلمات التى دوت أم شعرت قلقا خفيا إزاءها .. لكنى ألقيت سؤالا جديدا ...

– والمشروع القومى .. مشروع الحاسب المركزى الأعظم ؟

بدا أن أحدا لم يطرح السؤال على نفسه أصلا .. أو هو تغافل عنه وتجنب إثارته.. لكن دمدمات مترددة تجرأت آخر الأمر.... « نوقفه برهة من الوقت » .. « بل نوقفه إلى الأبد » .. « أو نحوله مشروعا مختلفا نافعا » ....

عندئذ هتفت : حسن .. إذن .. فليعلن كل من بالقاعة موافقته عمليا .. ليتقدم كل منا .. بالدور .. ويترك الحاسب الذى يحمله .. أيا كان نوعه .. فوق المنضدة بطرف القاعة ...

الجميع استجابوا لندائى .. وخلال وقت يسير بدت المنضدة وقد ناءت بحملها من أدق الآلات وأصغرها ...

– غدا .. ندمر هذه الحاسبات .. كبداية لتدمير غيرها بأنحاء كوكبنا .. وإلى أن يقضى نهائيا على كافة الموجود منها .. ومن ثم يتحرر الإنسان .. ويبدأ انطلاقته الكبرى لاستعادة ذاته .. واستعادة قدراته وملكاته التى منحها له خالقه ...

كانت هذه كلمات العالم الكبير التى أنهى بها الاجتماع .. وقد جلجلت عبر لاقطات الصوت وهزت أركان القاعة .. لكن محال أن أكون لمحت أقل بادرة اقتناع أو رضاء على قسمات الرجل وهو ينطق فحواها ...

المهم أن كل شيء انفض أخيرا ...

فانطلق البعض نحو سياراتهم الكهربائية .. وفضل البعض أن يستقلوا الأتوبيس الطائر من موقفه على بعد أمتار منا .. فى حين لم يفكر واحد فى استخدام ساقيه ولو كان بيته لدى الناصية القريبة فرياضة المشى قد نسيت منذ زمن لا ندركه .. وهى تذكر فقط فى الكتب القديمة ...

عالم الآثاريونس الدفراوى أعلن وقد أوشك أن يلج سيارته انه نسى وشاحه المكيف بالقاعة . . واستدار متوجها لإحضاره . . وقبل حضورى كنت قد اشتريت نسخة الضحى من جريدة النيل الناطقة . . وقد تذكرت الآن أنى نسيت بلورى قرص الجريدة على وسادة مقعدى بالقاعة .. فانطلقت حثيثا للاتيان به ...

بغتة لمحت العالم الشاب الدفراوى يتجه إلى المنضدة وعليها الحاسبات . . وليس إلى حيث كان يجلس على مقعد بطرف الجناح الأيمن .. فأسرعت بالاختباء خلف ستار مخملى أراقبه ...

فى تردد امتدت أصابع العالم نحو الحاسب فى حجم ساعة اليد من

النوع المحسن (١٤ ك . م س ٧٥ لعام ٢٥٠٥) .. ورفعه إلى شفتيه وقبله .. عاد يتأمل عدسته فى شغف كبير .. بل فى وله وتقديس .. ثم عجل فغيبه فى جيب معطفه ...

وخلال عودتى قابلت علماء آخرين فى طريقهم الى القاعة ...

ترى كيف السبيل ليتخلص العلماء من عادة النسيان .. وكيف اتخلص أنا من عادة تذكر أدق التفاصيل . . تفاصيل ما يفعلونه بالقاعةوما يخفونه بجيوبهم .. وكيف تتخلص حضارتنا من أجسام معدنية دقيقة .. بريئة .. تتربص بها ...

* * *

الهجرة إلى المستقبل ..

جاءنا الإذن في موعده على شكل ومضة بنفسجية أطلقها برج المراقبة .. على الفور ارتفعت البيضة ملساء الجدران دون أدنى صوت أو اهتزاز وقد حملتنا بداخلها .. في ثانية واحدة وبمنتهى الليونة كنا قد تخطينا مدينة المليون ناطحة عاصمة مديرية وادى النطرون . . وفي ثانية أخرى أشرفنا على حدود البحيرة الصناعية التي تم إيصالها غربا ببحيرة منخفض القطارة .. متخذين اتجاه الجنوب رأسا.. لكن بعد أربع دقائق انتهت ولم نحس بها كانت البيضة تنساب إلى قلب الصحراء الجارى استصلاحها وتحويلها الأرض تموج بالخضار ،

وبالفعل سرعان ما احتوتنا سحابة مترامية عرفت من لونها البرتقالي أنها غير طبيعية .. وإنما نتاج تفجير صواريخ التحكم في الجو .. وانها ولا بد تنزل الآن أمطارها الغزيرة فوق الرمال تحتنا..

فيما وراء الكوة المستديرة عاقنى الغيم عن تتبع عمليات العمار بأسفل .. وعاقنى أيضا عن رؤية البيضات الست المرافقات لنا والمتجهات لنفس غرضنا ...

فأدرت بصرى إلى الداخل ورغم قناع الموسيقى الحالمة والروائح العطرية المهدئة وتلك الأبخرة المغذية والمنشطة التى تتسلل عن طريق مسام الجلد .. شغلت بما تضمه القاعة من أجساد فارعة التفت حول ناقوس العزل المعقم ...

ثمانية عشر مقعدا مائيا مريحا استرخى عليها ستة عشر فردا من أسرة « النطرونى » .. أسرتنا .. وفردين غريبين هما الطبيبان المسئولان عن محتوى الناقوس .. وأما الناقوس ذو الانتفاخ الكروى من أعلاه ومادته البلاستيكية الرائقة كالزجاج .. فقد استقر خلف مقصورة القيادة الآلية متقدما عن المقاعد .. وضم بداخله واحدا من أحفاد النطرونى .. رقد بلوره على أريكة زئبقية فى حين احتلت ثغره ابتسامة متحدية ...

همهم نجاتى النطرونى — وهو ابن عمة والدى — فى الأذن البديلة التى أحملها على جانب رأسى ...

— يالها من فرحة ترتسم باتساعها على وجهه ....

أدرت عينى وركزتها على الناقوس .. إلى داخله . . بالقطع علوى فى قمة ابتهاجه .. يمسك جهاز الحاسب اليدوى ويباريه لعبة

شطرنج الالكترونات .. وبينما أصابعه الرفيعة على الأزرار تحاور رصيد الحاسب الوفير من المعلومات على صغر حجمه فقد لمحت عينيه شاردتين .. لامعتين .. تتعلقان بصورة بعيدة .. لكنها ذات إيقاع بدا آسرا بالغ العذوبة على قسماته ...

قلت مؤكدا: علوى شاب رائع .. أتنبأ له بالذيوع والشهرة لمدى أواخر الألف الرابعة بعد الميلاد ....

غطت الكآبة جزءا من بياض عينى نجاتى ...

– كان بمقدورى أن أسلك نفس طريقه منذ مائة عام ...

تساءلت : وفيم كان إحجامك ؟

– بل ولم أحجمت أنت أيضا .. أظنك لن تتعالل بأن التجارب الأولية .. منذ قرنين أو نحوهما .. لم تكن مشجعة ...

هززت رأسي : هكذا !

تابع : ثم تلجأ للقول بأن أياً منا لم يكن مصابا بمرض عضال يقنع المسئولين بضرورة تبريد بدنه .. فتلك كانت المبررات آنذاك .. أما اليوم .. أما الآن .. فان المقابل النقدى مرتفع للغاية .....

كلام ناجي أقنعني فصمت .. وصمت بدوره أو تشاغل بمحاولة اختراق أستار السحابة بخارج البيضة الطائرة ...

عندئذ طوحت بصرى تجاه كبير الأسرة .. فرغلى النطرونى..

الشاب ابن الثمانين ربيعا .. المغادر « ماتا باعوينا » منذ قرابة العام .. كان يجلس على المقعد الملاصق للناقوس .. متمايلا . . متأرجحا .. غير مستقر بالمرة . . يتفجر فمه الضيق بالكلمات .. وثنايا جسده بالعافية .. وقسمات وجهه بالنشوى .. بالحياة ...

وهكذا فى عالم اليوم قد أصبحت فروق الحيوية لا السن واقع نألفه ونعيشه ...

قلت لنجاتى فى نبرة آسفة : معك حق..أنا نفسى كلما أبصرت واحدا من مغادرى أسر الجمد يواصل ما توقف من حياته.. أو قل يسلخ شيخوخته .. بعد الراحة وتجديد الشباب.. ليستقبل بحرارة الصبا دنيا متألقة تغاير تلك التى تركها وراءه قبل أن يبرد .. كلما أبصرت ذلك أحسست أن الآية انعكست .. شيوخ الأمس هم شباب اليوم .. ونحن الشبان.. قد انقلبنا شيوخا صدقا وفعلا رغم كل اعتبارات الزمن النسبية التى نعيها ...

وأزت كلمات رتيبة من حولنا ..« باق من الزمن أربعون دقيقة على محطة الوصل . . ماتا باعوينا » ...

بينما مالت على خصلات شعر ذهبية مزروعة فواحة العطر وملأت مجال الرؤية لدى شفتان طلاؤهما فى ضياء الفيروز الفاتح...

– أو لم يكن الأجدر أن تعطيها له ؟

حملقت فى الحالة ريم النطرونى القصيرة العفية رغم رصيد

أعوام عمرها .. انها إحدى المحظوظات من أسرتنا .. فقد أتاح لها ثراؤها تجربة الجمد مرات خمس بلغ مجموعها مائة وخمسة وثمانين عاما ..

هتفت : آه .. ماذا ؟

عادت تلح : ابنتك .. لماذا لا تلحق بهذا الشاب .. تشاركه مشواره .. وفيما بعد مرحلة تألقه ...

ابتسمت : لم يفتنا ذلك .. نحن .. وهم .. لكن الحاسب القومى لتنظيم الارتباطات الزوجية حدد اختلافا جوهريا فى المقومات الوراثية بين كل من علوى وابنتى .. تصنيفها هى جاء مثبطا ...

تمتمت العمة ريم : خسارة ...

قلت : لكنها ستجمد .. فى يوم ما ستجمد .. هذه أمنيتها .. بعد أن تعالج .. فأنا واثق من تأكيدات العلماء بقرب السيطرة على كافة المقومات الوراثية فى البشر .. أجل .. لابد وأن يفتح الباب على مصراعيه أمام التوصل إلى الفرد الكامل الخالى من عيوب النفس والجسد .. على المستوى الشعبى العام وليس الخاص ...

« باق من الزمن عشرون دقيقة على محطة الوصول. ماتاباعوينا» ...

عاد نجانى لتأوهاته ...

— على انى مازلت أتوجس من التبريد .. أحيانا أرى فيه .. غلطة حضارية كبرى ...

ـ هه ؟

وضع راحة كفه على ساقى .. وبت برفق ...

ـ اسمع ... رغم إقبال الكل عليه .. ورغم ما يذاع عن حسناته ومزاياه وأهدافه .. سرا وعلانية .. فليس كله خيرا .. .

تعجبت : لماذا ؟

تقمص هيئة الذئب الذى عجز عن افتراس الفيل : لقد قضى التبريد كلية على روابطنا وتقاليدنا العائلية ..

واجهته غاضبا : لا .. هنا يجافيك الصواب يا ماجى .. كلمة الأسرة محيت من قاموس كوكبنا منذ أكثر من قرون ثلاثة من الزمان .. وهو تاريخ يسبق عصر التبريد .. وكما تعلم فان اندثار الأسرة نشأ أساسا عن ثورة التصنيع الغابرة.. ونموشبكة المواصلات العالمية فى مطلع القرن العشرين .. والازدياد السكانى الرهيب قبل أن يحدد النسل بصورة حازمة مؤخرا ..أشياء من هذا القبيل هى السبب .. وليس التبريد ...

حاول الاعتراض .. لفظ كلمة « لكن » مرتين ... ومع كل صممت على المضى فى إطلاق كلماتى النارية الحاسمة ...

ـ ويكفينى هدف واحد للدلالة على عظم التبريد.. أنه إطالة الحياة .. والذى توج منجزات العصر بأكمله .. بعد أن حقق حلما من أغلى احلام البشرية وبطريقة تختلف كلية عما تخيله الشعراء

أو مؤلفو الأساطير .. أو حكماء الكيمياء القديمة .. فى بحوثهم المضنية عن أكسير الشباب ...

تدخلت العمة ريم بصوتها المجلجل : أصبت..فقد كان لاكتشاف كنوز التبريد وقع بعيد .. بل مذهل .. على مختلف أنشطة البشر وأفكارهم ...

تحمست واحدة من حفيدات النطرونى الحسناوات .. كانت تجلس إلى يمين العمة ريم..رفعت رأسها من تحت هالة الشعر الفاحم التى كادت تخفى معالمها .. وواجهتنى برموش وحواجب زرقاء مصطنعة ...

قالت فى حماس دافق : بمقدورى أن أعدد لكم كنوز التبريد التى تقصدونها .. إطالة الحياة .. التعلم وتلقى المعلومات أثناء ثبات الجمد .. العلاج عبر الزمن .. التأريخ واقعيا.. السفربين الكواكب .. الهرب من كوارث الطبيعة وأهوال الحروب .. اتقاء المجاعات والأوبئة .. الحفاظ على العلماء والنوابغ وذوى الطاقات المميزة .. وتلك البدعة الحديثة . السياحة والهجرة عبر الحضارات .. عبر المستقبل .....

لاحقتها العمة ريم وقد انتقل إليها حماسها : تماما .. وكلها كما نرى .. مشروعات طويلة الأجل بعيدة الهدف وهى حقا من نتائج عصر التبريد ...

هززت رأسي موافقا : وربما ما يستجد . . يكون أروع فى مجال تطوير أنشطة الإنسان وبلورة مفاهيمه وآفاقه ....

وتعالى صوت على صوتى « محطة الوصول ماتا باعوينا .. محطة الوصول ماتا باعوينا » ....

رحت أفكر والبيضة تحط بنا فى يسر على الشريط الممغنط الذى انطلق يسحبها بركابها صاعدا جانب الجبل الصخرى نحو قمته . . فى حين اختفت البيضات الست المرافقات عن بصرى ...

« ترى .. هل حقيقة .. لم يعد الموت هو النهاية المحتمة لتواجد البشر .. وإن دوام الشباب بديل آمن على الدوام ؟؟ »

أعادتنى إلى سابق مشاعرى صيحة إعجاب أطلقها فم نطرونى وسيم ...

— آه .. بالضبط كما فى الصور الدعائية العابرة فى السماء .. هاهو جبل العوينات الساحر ...

فى حين تتالت كلمات مسجلة ينطقها صوت يعتريه الاختناق ...

« محطة الوصول ماتا باعوينا .. وهو اختصار لاسم المقر الأبدى لتبريد الأجساد البشرية بأسفل العوينات .. ويقع المقر لدى نقطة التقاء الحدود المصرية السودانية الليبية جنوب محطة الإقلاع فى وادى النطرون بألفى كيلو متر .. مشيدا على الجانب المصرى من سفح جبل العوينات والذى يصل ارتفاعه ١٩٣٤ مترا فوق سطح البحر..

فهو أعلى جبال الصحراء الغربية الأفريقية الكبرى .. وقد كان الجبل فى العصور السحيقة مركزا لتجمع الأفارقة الأوائل.. لتوسطه الصحراء الكبرى التى طالما ماجت قديما بالحياة ممثلة فى غابات الأشجار وقطعان الحيوان وقبائل الإنسان الأول .. وبالتدريج تحولت إلى صحراء جرداء فى عصور التاريخ المعروفة ... وبعدئذ .. وفى القرن الواحد والعشرين بدء فى . . . .

بغتة اظلم الجو بالخارج.. كانت البيضة قد سحبت على الشريط المتحرك الى داخل الجبل.. دقائق عادت بعدها الضياء مبهرة تخطف البصر . . كانت البيضة الآن تنزلق بنا هابطة إلى جوف الصخر وسط صفوف متراصة من بؤرات الفوسفور الشديدة الإضاءة فى ألوان تتحول من الأخضر الباهت إلى الأصفر الفاقع وبالعكس ...

واجتذبنى منظر الممر المتلألئ عما يلقيه الصوت من معلومات عن الجبل ومحتواه فقد قرأت عنهما الكثير ...

ورحت أخاطب نفسى بصوت لم أنتبه إلى علوه وأنا قابع فى مقعدى . . أستشعر مع اتجاه البيضة إلى أسفل بتيار لذيذ من النشوى يتسلل إلى صدرى .. إلى شراييني ...

– اختيار موفق .. ان يجعلوا قلب الجبل النائى عن العمران.. وأسفل كتله الصماء لا تؤثر فيها أعتى القنابل النووية .. مستودعا للحفاظ على أجسادنا الهاجعة .. المستسلمة .. عبر سنوات الجمد ...

والتقط أحد الطبيين الكلمات المتواترة على شفتى .. وهو الأكبر

سنا والأرفع بلدنا . . فوجه إلى الحديث بينما يحرك ذراعيه وساقيه مبعدا عنه عناء الجلوس بلاحراك طوال طيران البيضة ...

– بالطبع يتحتم توخى أقصى درجات الأمان ضد عديد من الأخطار..مثل الأعطال التى تلحق بالأجهزة والمعدات .. والأخطار الطبيعية .. والأهم ضد أعمال التخريب أو محاولات الاختطاف والقتل والتشويه ...

أمنت على كلامه : فعلا .. فعلا ....

أخيرا توقفت البيضة .. سكنت حركتها نهائيا ...

ووجدتنى وبقية أفراد أسرة النطرونى خارجها .. نستنشق عطر الياسمين المنتشر فى أعماق الجبل دون أن ندرى مصدره .. أما الناقوس بمحتواه الآدمى فقد تسلمته عربة كهربائية وحملته إلى ما وراء باب فولاذى يشبه أبواب البنوك .. فى حين عبرنا نحن الواحد تلو الآخر بابا مجاورا واطئ المدخل .. تتركز على جانبيه عدسات البحث عن الأسلحة والمتفجرات ...

وضمتنا آخر الأمر أوسع قاعات كرة الأرض ...

كانت رحبة . . عالية الجدران .. شاهقة السقف بكيفية لا تصدق..وقد قسمها حاجز من لدين شفاف الى نصفى عملاقين.. الأول لمحتافيه الناقوس يحتضن علوى النطرونى تجاوره قامتا الطبيبين بعد أن ارتديا ملابس واقية .. والثانى احتللناه نحن ...

وخلال دقائق ومع انسحاب العربة والناقوس وانزواء الطبيبين بركن بعيد أصبح علوى فى حكم المنفرد بنصف القاعة وحده...

تلفت حولى .. بدت الجدران التى تضمنا محكمة علينا وعلى صمت الكون كله .. بدرجة ضخمت ما يصدر عن جماعتنا من أصوات حتى تردد أنفاسنا ...

حققت مزيدا من التعمق فى الفحص ...

الأرضية المدنة .. حانية .. يغطيها بساط نجيلى أنبت صناعيا على قوام من ألياف تربة القمر .. والجدران رائقة الاحمرار فى لون الورد..ملساء .. تكاد تلمس نعومة أسطحها عن بعد ..أما السقف فهو مشيد على هيئة قبة سامقة تملؤها آيات قرآنية كتبت بالخط الالكترونى على نمط كوفى مندثر .. وفيما عدا الستة عشر جدا نطورونيا لم يكن نصف القاعة يضم قطعة أثاث واحدة أو شيئا قائما على الإطلاق ...

نفس الحال تيقنته فى الجانب الآخر للقاعة .. أجساد علوى ثم الطبيبين ثم الفضاء المتسع...

لكن على غير توقع .. منا على الأقل .. تحولت مساحة نصف المتر المربع بالجدار الأيسر لنصف القاعة الثانى إلى ما يشبه شاشة تليفزيون .. أضيئت من علم .. واتضح عبرها وجه صارم عرفت فى الحال أنه للطبيب العالم كريم الصباحى المشرف على « ماتاباعوينا » بكل ما تضمه من أجهزة متطورة وأسرار دفينة ...

تطلع الطبيب العالم من داخل الإطار المضئ نحو الشاب الواقف قبالته.. تأمل علوى النطرونى طويلا وقد كساه التعب واللامبالاه...

بالطبع الطبيب كان يراه ...

ثم أدار وجهه نحونا وألقى نظرة عبر الحاجز على جماعتنا .. سرعان مابترها ليعود إلى اتجاهه الأول مخاطبا علوى فى لهجة جادة...

« السيد علوى نصر الدين النطرونى .مصرى الجنسية .السن ثلاثون عاما . بعد أن قدم قوائم (المايكرو) المطلوبة عن شهاداته وخبراته وهواياته .. وكذا قوائم بما أجرى على بدنه وعقله ونفسه من فحوص وتحاليل واختبارات .. وما ارفق من تقارير تختص أسرته وعدد من جمد منهم سابقا ولاحقا ... وبعد أن أتم الحاسب المركزى دراسة ذلك جميعه . وعرضت نتائج الدراسة على اللجنة العليا المختصة بالمقر » ...

رسم الطبيب العالم ابتسامة تقليدية على وجهه ...

« فباسم اللجنة أعلن سلامة إجراءات التقدم للماتاباعوينا ... وبذا قبل طلبك وتم قيدك بسجلاتنا .. ومن ثم فقد تقرر وقد جهز بدنك طيلة المائة ساعة الماضية بالعقاقير المشعة وموجات ماتحت الصوت . البدء اليوم فى تجميد كامل جسدك يا سيد علوى نصر الدين النطرونى . فى تمام الرابعة عشر ظهرا حسب التوقيت المحلى لجبل العوينات . تحت الرقم المسلسل ٣١٨٤٤٤٤ ف ف » ...

لوى الطبيب العالم عنقه فى لفتة حادة نحوتا وقد زادت ابتسامته طولا وعرضا .. ورفع حاجبه .. ومط شفته ...

« الساعة الآن الثالثة عشرة... بقى على بدء التبريد أو ما نطلق عليه علميا لحظة التوقيت الكربوجينى ساعة زمنية أخرى... أيها السادة . الممثلين لأسرة النطرونى ... يسرنى أن أترك لكم ابنكم لتحتفلوا بوداعه بالكيفية التى ترونها خلال الدقائق . المتبقية . القادمة » ...

اختفت صورة الطبيب العالم.. وتحول سطح الحائط إلى سابق عتامته .. وعاد السكون .... عاد صمت الكون كله ...

ما الذى على أن أصفه بعد ذلك ...

ان غالبية الأسر ليس المصرية أو العربية فحسب.. بل فى جميع البلدان بأنحاء العالم قد أصبح من أولى وأهم تقاليدها إجراء احتفالات خاصة تتخذ شكلا طقوسيا .. لكن مهما بولغ فيها فإنها تقل حدة عما كان يجرى أثناء طقوس الدفن فى عصورما قبل التبريد ودنياه الحافلة ...

وهكذا انتشر الستة عشر فردا من عائلة النطرونى فى شبه دائرة وقد أمسك كل واحد منهم .. وأنا منهم .. بأرغونه (الترانزستور) . فى قبضته اليسرى .. بينما يعزف على دوائره الالكترونية الحساسة بأصابع يمناه .. نغما جماعيا .. موحدا ... لتعم القاعة بنصفيها موسيقى شجية .. آسرة ...

وفى الجانب المواجه لنا .. فيما وراء الحاجز .. انفلت علوى بدوره يقفز قفزات إيقاعية عالية .. رشيقة .. كأنه يسبح فى الهواء ليقبل الملائكة عبر النجوم .. عبر الأكوان النائية المبهمة ...

فى حين أخذت حناجرنا تنشد فى رخامة على إيقاع النغم المنساب مجسما متعمقا الى أغوار الروح :...

« الموعد ها هنا.. بعد ألف عام .. بالحب استقبالنا .. للأهل الكرام .. واليوم ليس وداعا .. بل إلى لقاء .. اليوم تبلغ فرحتنا.. عنان السماء .. » ....

فى النهاية تناول كبير نا فرغلى النطرونى زجاجة مثمنة الأضلاع من جيبه .. كانت عكرة البياض .. تمتلئ بمياه عين حلوان المعدنية الرابعة .. التى اكتشفت قريبا عام ٢٠٥٧ .. وعلى الفور دارت الزجاجة المثلجة ذاتيا علينا .. من يد ليد .. ليرشف كل منا جرعة فى صحة العزيز علوى النطرونى وحظه النهائى .. وقد أخذ هذا يلوح لنا عن بعد ...

حتى سمعنا رنين جرس متواصل يعلن تمام الرابعة عشر .. لحظتها اقترب الطبيبان من علوى.. كلماه .. خلعا عنه ملابسه الخارجية وأبقيا الرداء الجلدى الذى يضغط على عنقه وإلى فخذيه .. أغرقه الطبيبان بعدئذ برذاذ مزرق .. برز عدد آخر من الرجال بنفس الأردية الواقية .. وبرزت كذلك العربة الكهربائية وعليها تابوت معدنى ...

وقام الرجال برفع جسد علوى الفارع وأسكناه تابوته العملاق وقد حمل عين الرقم ٣١٨٤٤٤٤ ف ف .. وأغلقوا غطاء التابوت برفق .. ليتحول علوى نصر الدين النطرونى فى طياته إلى قالب من الصقيع لن يفك أسره إلا بعد ألف عام ...

أى عام ٣٠٦٥ ميلادية ...

بعد نحو ثمانية عشر دقيقة تالية .. والبيضة الطائرة تحتوينا ثانية بداخلها .. آخذة طريق العودة إلى مدينة المليون ناطحة بمديرية وادى النطرون .. ملت على الطبيب رفيع القامة وقد جاءت جلسته إلى جوارى .. وسألته بعصبية ...

– وبعد سنوات الأسر الإرادى هذه ؟؟

قطب جبينه : لا شك مزيد من الاستمتاع بالحياة الممتدة وأيضا مزيد من اللجؤ لأسر الجمد .. مرات ومرات ومرات .. .

عضضت شفتى السفلى : وبعد مليون عام ؟

– ماذا تقصد !

– بعد أن يتمادى العمر أو الزمن بالكائن البشرى .. بعد أن يهزم ويستنفد إمكانيات الهرب فى أجهزة التبريد .. فما الحل ؟

خفض الطبيب عينيه بالرقائق المكبرة الملصقة على حدقتيهما .. وتشاغل بمداعبة سلسلة فى يده ...

– إذا كان هدف التبريد الرئيسى فى الماضى هو مجرد الحفاظ

على الأجساد من التلف .. وفى الحاضر هو دوام الشباب والحيوية .. فإن رغبة الإنسان فى إطالة عمره أو فى التعلق بالحياة لن توقف نريد إجابة لما بعد استنفاد إمكانيات التبريد .. حسن .. ولو أننا لم نصل نهاية الطريق .. فاننى أعلن أن الأفكار ما تزال متألقة .. متفجرة .. بل لا بد من إيجاد استعدادات بدياة لإطالة الحياة أو مقاومة الموت .. مثل الأجهزة الالكترونية التى توزع داخل الجسم لتعوض نواحى العجز والقصور فيه ...

صرخت فى وحشية : مازلت أصر على سؤالى .. ماالعاقبة فى النهاية .. فى آخر المطاف .. بعد أقصى مرات التبريد وغير التبريد .. بعد كل شئ ؟

حملق فى وجهى ببلاهة ...

تمتم فى بساطة ووضوح ...

— الختام هو الختام .. لاخلاف عليه .. فى تقديرى أنه مايجب أن تنهى به حياة كل كائن حى ...

— ولو بعد مليون ....

قاطعنى صاغرا : ولو بعد مليار عام ... صدقنى .. فالإنسان لا يمل مغالطة نفسه ....

وعادت البيضة تختفى من جديد فى طيات السحابة البرتقالية .. بينما تمطر صناعيا على أرض جدباء أسفلها ...

• • •

المـــارد الفضى ..

أزت بؤرة حمراء ...

« قاعدة التوجيه الكونى أربعة تنادى القاعدة تسعة »

وأجابت نغمة رتيبة مشروخة « قاعدة التوجيه الكونى تسعة على الخط »

ـــ تقريرك بحالة الجو ؟

ـــ الأرصاد تؤكد أنه يوم رائع .. لولا برقية وردت توا بصورة مغايرة ...

ـــ ما مصدرها ؟

ـــ منصة الاستطلاع الفضائى ل، ت٢٠٨ المحلقة شاهقا شمالى الساحل بمائة وستين كيلوا مترا ...

فلحت اللهفة مع الكلمات : أسمعنى نصها :..

« تجمعات من الركام الطبق عند الأفق — شمال شرق — قد تتحول إلى سحب رعدية — سرعة الريح ٤٢ ك — بعد الموقع ما بين ١٤٠ و ١٨٠ ك ... »

فى أعقاب صمت دقيقتين كاملتين انزلقت كلمات آمرة : قد بدأ العد التنازلى .. لم يعد لدينا وقت .. تطلق حالا نفاثات المعاونة الجوية لتحويل مسار العاصفة عن قاعدة الإطلاق الصاروخى بالصقر الأرقط ...

وخلال أربعين ثانية انقضت عبر لوحة التلفيزيون ذات الأبعاد المجسمة ست عصى مدببة الأطراف برتقالية الألوان .. آخذة اتجاه الشمال .. فى حين زعقت عشرات البؤرات فى صخب :

« بقيت مائة واثنتان وتسعون دقيقة وينطلق المارد من عقاله »..

ووسط الخضم الهادر من الاستفسارات والتوجيهات والأوامر المبتورة وإعلان قراءات مئات المؤشرات المتذبذبة فى جنون . . عبر موجات لاسلكية متلاحقة فائقة القصر وأخرى بالغة الطول وثالثة متوسطة وقريبة ..... صعد الركب الرسمى .. وانطلق ...

حوامة .. متماوجة الألوان .. مفلطحة شبه مستديرة على الجانبين . مدببة خفيضة لدى المقدمة بينما تتربع خليفتها . . أطلقت عمودين من لهب أزرق . . ثم فى تؤدة ووقار اعتلت صفحة امتار عشرة من

سطح الأرض .. وحولها . . وأمامها وخلفها .. انتشرت الحراسة عشرات من الأبدان الرمادية المعلقة بأردية النفث الجوى الفردية .. وأسلحة الوميض الصاعق تلمع فى أيديهم ...

وبينما الركب يتقدم معتليا الجووهو فى نفس الوقت يكاد يلامس صفحة الأرض اتكأ كل من الكبيرين بداخل الحوامة الواحد فى مواجهة الآخر.. على الوسادة اللينة المكسوة بقماش فى لون ردائه .. وراح يراقب رفيقه .. فى صمت وتوجس ...

الأول هو الكبير المطلق التصرف فى دولة جزيرة المعمرين .. الذين توصلوا منذ قرنين ونصف ــ وحدهم ــ الى سر إكسير إطالة الحياة فقصروه على أبناء جزيرتهم دون غيرهم.. ويشار إليه أيضا بالمعمر الأكبر فسنه قد تخطت المائتين والثلاثين عاما وأحيانا يسمونه الأشنب نسبة إلى شعر شاربه الذى يصل ركبتيه ..

والثانى هو الكبير الحاكم الروحى لدولة جزيرة المروج الخضراء .. أو الصخور المتحولة خضارا .. فقد حقق شعب الجزيرة بتفوقهم العلمى أعظم معجزات القرن الثلاثين بتحويل تلال وجبال جزيرتهم إلى بقاع مترزعة فكانت أولى الدول على وجه كوكب الأرض التى محت نهائيا كلمة صحراء صخرية من فوق خريطتها ...

وشعار دولة المعمرين يميزه اللون الأحمر قانيا .. كأنه الدماء واهبة الحياة المتجددة .. أما شعار الدولة الثانية فمنطقى أن يستمد

لونه من لون الطبيعة التى سادت مؤخرا .. فكان الخضار المتألق حتى الانطباع . . .

على سقف الحوامة تتربؤرة أخرى بنية – مبدئيا – كل ثمان دقائق . . . . . تعلن فى توتر .. الآن .. « قد بقيت مائة وثلاثون دقيقة على إطلاق المارد » . . .

مد المعمر الأكبر ذراعا نحيلة – تنتهى بمخالب أشبه بمخالب الدجاج نحو ثقب غائر مستدير بجدار الحوامة .. وبسط كفه المتقلص قبالتها .. على الفور لعلع صوت ...

– طلبات الكبير مجابة ...

انفجرت فقاعة الصابون من داخله : هاتها ...

فتحت كوة مثمنة إلى جوار الثقب .. برز منها رف معدنى عليه علبة بيضاوية من لدين وردى متلألئ .. عندئذ انفرجت شفتا المعمر الأكبر الغليظتان عن ابتسامة مقيتة .. خفض بصره فى تصنع .. عاد فركزه بغتة وقد عبرت مقلتيه ومضة ماكرة حادة .. وفى هدوء تحركت مخالبه تنزع من العلبة حبة لها دكانة وقوام حبة البن المحمصة ...

وفى هدوء أيضا قرب الحبة من وجه رفيقه وراح يحركها .. ويقلبها .. ويضغط على جوانبها منتشيا .. مزهوا ...

– انظر .. انها .. كبسولة الإكسير .. واهبة الحياة المديدة...

ثم صمت قليلا ليضيف يدنا يحتوى الحبة يبصره فى خشوع ووله ...

– تذكرها .. فمتى نفذت وغدك .. أصبح سرها ملك لك .. ولقومك ...

أشاح الآخر بوجهه بعيدا : إننى أمقتها ...

– مسكين .. فكم حوربنا نحن من أجلها .. بغرض الفوز .. بها ...

ولم يجب الكبير أبو الكل ...

– أنسيت ما دون فى تاريخنا وتاريخكم وتاريخ كرتنا . . أو كوكبنا . . أنسيت .. الحرب النووية . المخيفة . . التى ابتلعت منذ بعيد . . وأدت إلى محو بلدان وشعوب .. وأمم بأكملها .. بل وفجرت القارات وفتتها إلى جزر .. منها جزيرتينا .... لقد أشعل ذلك كله ...: حباية الاكسير .. الصغيرة الوداعة هذه ...

وظل الآخر فى المواجهة على جموده واكتئابه ...

– هذه التى فشل الكل فى سرقتها منا .. فى انتزاعها عنوة وقسرا .. سوف تكون بلا أدنى مشقة .. لك ولقومك ...

طوح أبو الكل نظرة ممتعضة إلى محدثه : صدقنى .. لا أحد يشتهيها لدينا ...

ـ لا لا .. مستحيل أن يرفض مخلوق إطالة عمره ولو لساعة تزيد ...

ـ من يعرف فداحة ثمنها .. يعافها ...

انحنى المعمر الأكبر ومد عنقه الثعبانى بطوله : اسمع .. بيننا اتفاق .. وقعه أسلافك وباركه معاونوهم ومعاونوك .. وأنا متمسك بكل حرف فيه ...

تمتم الثانى مرغما : وأنا لا أتحلل منه ...

انفجرت قسمات المعمر الأكبر فازداد قبح وجهه .. وهبطت مخالبه بالحبة تلصقها على عنقه أسفل ذقنه متيحا امتصاصها على مهل .. فى حين استطرد فمه ...

ـ وقد نصت البنود المعلنة من الاتفاق .. على تسخير الأموال المكدسة لدينا إلى جانب الطاقات المفكرة الخلاقة لديكم .. من أجل تحقيق معجزة . . كل .. العصور ...

عندئذ لم يملك أبو الكل إلا أن يهمس فى إعجاب عجز عن كبحه ...

ـ المارد الفضى ...

ـ تماما .. أن تشييد ذلك المارد أعجوبة حقا.. بينما سيحقق إطلاق مراحه المعجزة الكبرى التى حرمتها كافة الحضارات قبلنا وأما عن . . بنود الاتفاق السرية .. فقد .....

لكن أبو الكل مد يدا ناحلة معترضة : هذا الجزء السرى.. ألا يمكن التروى.. قليلا بصدده ؟

قست نظرات المعمر الأكبر : محال.. اننى متمسك بالاتفاق.. جملة وتفصيلا ...

— إذا نؤخر تنفيذ الجزء السرى . . حتى نزداد تفهما له ...

تطاير اللهب من عينى المعمر الأكبر : كيف تطلب منى ذلك وعلماء بلدك هم الذين توصلوا لنظريات توليد الأشعة ونفذو تصميم أجهزة بثها ...

— اكتشاف الأشعة تم فى زمن قديم .. وما الاستخدام الجهنمى لها إلا من تفكيرك أنت . . وحدك ...

— ليكن .. فقط تذكر..البند ٤٨ من الجزء السرى ينص. . « فى أعقاب الإطلاق يأتى دور الأشعة .. فى اليوم العاشر على اطلاق المارد الفضى.. فى مطلع العام الجديد ٣٠٠١..ووسط ذهول الدنيا بالحدث الخرافى..وبينما البشر فى كل مكان يتطلعون وجلين خاشعين مسحورين .. إذ بعدد من الثقوب ينفرج بأنحاء المارد .. دقيقة .. مموهة..يستحيل تمييزها على البعد .. ومن الثقوب تنسكب الأشعة .. تخترق الجدران تخترق الأجسام تخترق كل شىء .. ثم تطوى الجموع ..بلا صوت.. أو تجسيد لأى قوام أو لون ».. هه .. ماذا تسمونها ؟

ـ أشعة شل الإرادة ...

ـ هو ذلك .. وحينئذ .. وقد أخذت أهبتك وخاصتك بارتداء الملابس الواقية .. أقوم ورجالى بالتعاون مع مندوبيك .. ببث الأشعة.. وعلى مدى أربعة وعشرين ساعة هي زمن دوران كوكب الأرض.. وأشعة شل الإرادة تعم جو الكوكب من أدناه لأقصاه.. يتم لنا .. أنا وانت .. ومن أجل شعبينا .. السيطرة المطلقة على كافة مخلوقات الجنس البشرى ...

أضاف أبو الكل فى أسى : تقصد الشراذم المتبقية من فناء الحرب النووية .. التى تفجرت منذ ثمانية قرون وما تزال آثارها عالقة بجهات أرضنا الى اليوم ...

ـ وهو ما سيسهل علينا تدبيرنا .. فأحد عشر مليونا من البشر.. عدد يمكن احتواؤه بسهولة ...

مسح أبو الكل بأصابع مرتجفة على خده .. عاد يقول فى توسل ليس فى طبعه ...

ـ لو أخرنا . . سريان الأشعة . . ستين يوما بدلا من عشرة ....

ـ لن أوافق إطلاقا ...

ـ لنجعلها إذا أربعين .... ثلاثين .....

غير أن المعمر الأكبر قفز واقفا فى حركة مباغتة مجنونة وهتف من بطنه أو جنبه ...

– عشرة أيام لا غير ...

ويسود صمت ثقيل يغطى على صوت تقدم الحوامة الحثيث ..

لكن البؤرة البنية فى الداخل.. وأيضا فى الخارج من مكان ما .. من أكثر من مكان .. رددت بؤرات أخرى فى غير كلل.. « قد بقيت ست وأربعين دقيقة على إطلاق المارد » ...

حاول المعمر الأكبر أن يلطف من حدته السابقة ...

– ألم نصل مرمى البصر منه .. بعد ؟

مال أبو الكل على أقرب النوافذ إليه .. أزاح ستارا.. هتف مأخوذا ...

– هاهو ذا .....

فعجل المعمر الأكبر باطاحة صدغيه إلى نافذته : آه .. أخيرا .... إنه أكثر جمالا من أول مرة رأيته فيها .. إنه أكثر .. رونقا وجلالا .. وجبروتا ...

على البعد .. على مسافة نحو الخمسة أميال .. برز جبل شامخ يسد الأفق ..... عاليا .. عريضا.. مهولا .. تضوى جوانبه وحوافه بلون الفضة الخالصة ...

على أن الجبل سرعان ما ازداد وضوحا وتكاملا .. ليتشكل فى النهاية كرة عملاقة لم يعرف كوكب الأرض مثيلا لضخامتها وإعجاز صنعها ...

وعلى البعد أيضا انتصبت قوائم ثمانية فى ارتفاع عمائر من ذوات الأربعين طابقا . . تمتد أسفل الكرة حاملة لها فى صلابة ورسوخ . . .

وجلجل صوت جهورى . . طوته وفردته حوائط الحوامة . . وان ظن مصدره أنحاء المنطقة الخارجية بأسرها . . وانفرشت النغمات تصول وتجول . . وتعربد . . آخذة كامل حريتها . . .
« المارد الفضى قمرنا الجديد — الذى نوشك على إطلاقة إلى سماء كوكبنا — الأرض — ليصبح للأرض قمران — أولهما طبيعى والثانى من ابتكار وصنع علمائنا الأفذاذ — ويتكون قمرنا المارد الفضى من مادة (البلاصوب) والمعروفة بكونها مزيج من الفولاذ والبلاستيك كأصلب ماصنع من مواد الأرض — والمارد الفضى عملاق كروى أجوف من داخله — قطره أربعة عشر كيلومتر. ووزنه عشرون مليوناً من الأطنان — تغطيه خيمة من لدائن شفافة تعلو سطحه بخمسة وستين متراً — لتحفظ جوه الصناعى من الانفلات — كما تقيه من اصدامات الشهب والنيازك والأشعة الكونية — أما مدن قمرنا المتناثرة فقوامها دور من طابق واحد — ومزروعاتها فصائل محددة تتميز بتألق خضارها — كذلك فان سكانه نخبة مختارة أو هم الخلاصة من أقدر علماء وملاحى الفضاء بدولتينا —— »

توقف الصوت برهة ثم أضاف « بينما تحمل قمرنا المارد الفضى صواريخ ثمانية بعيدة المدى من النوع المعروف بالشيطان . — وهى

التى ستنطلق به وتضعه فى مدار بيضاوى حول خط استواء كوكبنا الأرضى نائيا عن ثراه بقدر ثمانية عشر ألف كيلو متر ـــــ »

أخيرا توقف الركب .... أسفل الجانب الشرقى «للمارد الفضى» استكانت الحوامة كما تستكين ذبابة إلى جوار منطاد . . وهبط الحراس وأحاطوا بها يحمونها من خطر غير منظور ...

عندئذ ترك الكبيران جوفها .. تبادلا تحية ظاهرها المعلن أكثر حماسا من باطنها الخفى . . ثم أعطى كل منهما ظهره للآخر وذهب إلى اتجاه مخالف ....

المعمر الأكبر حمله وعددا من أعوانه مصعد إلى قلب المارد الفضى .. وأبو الكل عاد إلى الحوامة التى استدارت تأخذ طريق الإياب ....

وما أن ابتعدت الحوامة نحو ميل ونصف عن مكان إطلاق المارد الفضى حتى أبطلت آلاتها وقبعت ساكنة .... عندئذ فقط بدأ العد التنازلى للاندفاع النهائى إلى خارج جاذبية الأرض ...

« تسعة وتسعون ... ثمانية وتسعون ... سبعة وتسعون ... ستة وتسعون ... »

وتساءل واحد وسط الجموع القليلة المترقبة وقد شاب نبراته القلق والتكذيب ....

ـ هل حقا ستتمكن الصواريخ من حمل كل هذا الثقل ؟

أجابه صوت مبحوح فى لا مبالاة : ولو نجحوا . . فماذا فى مقدوره أن يقدم .. صدقنى .. لن يزيد عن وجه ثان يطل علينا من عليائه مشفقا ...

لكن الأول اعترض : برنامجه المذاع حافل بالمزايا ...

« ستة وأربعون ... خمسة وأربعون.. أربعة وأربعون.. »

— لقد وعيت البرنامج .. للاسف . . فغالبيته بناء مدن.. سيبنون عليه مدنا للاستشفاء من أمراض العصر .. وأخرى سياحية .. أو ترفيهية وصناعية ولكبار السن.... يخططون لذلك فى حين يعجزون عن إيجاد حل لمحو أو حتى تخفيف وطأة الإشعاعات الضارة التى تخلفت عن الحرب النووية.. وما تزال تملأ جهات بأكملها على ظهر كوكبنا . . رغم مرور أكثر من ثمانمائة عام عليها ...

لحظتها صاح الأول : بل إن من أول مهام المارد الفضى التحكم فى جو الكوكب الأم . . ومن هنا تجئ المساعدة على تطهيره من المخلفات الإشعاعية.. بطردها إلى خارج جونا .. إلى أغوار الفضاء..

« خمسة وعشرون... أربعة وعشرون... ثلاثة وعشرون ... »
واشتركت سيدة فى الحديث ...

— يقولون أيضا إن المارد سيكون مخزنا مهولا للحبوب ومواد الطعام ..

تكلم ذو الصوت المبحوح : ومع كل فرؤياى أن الإنفاق

باهظ.. والا ما تكلفت عدسة مرصدة وحدها .. مائة مليون جنيه ...

قلب الأول شفته : هذا مشروع مؤجل.. مثاله مثل المدن المزمع تشييدهامستقبلا للتخفيف من حدة التكدس السكانى على الأرض .. وربما شمل المشروع القمر الطبيعى كذلك ...

أكدت السيدة : أن الاتصال بين القمرين مباشرة سيكون أسهل من اتصال أيهما بأرضنا . لخلوهما من جو يماثل جو كوكبنا ..

وراح الأول يعدد مزيدا من الفوائد فى إيمان عميق ...

- وسيضم المارد الفضى أجهزة متطورة فائقة الحساسية تراقب أى تكدس للسلاح .. أو تراقب أى كائن وافد إلى مجموعتنا الشمسية .. وقد يضم المارد أجهزة تجمع لنا طاقة الشمس المطلقة السراح عليه .. وترسلها إلى الأرض معبأة فى ...

« أربعة .. ثلاثة .. اثنان .. واحد .... »

اشتعلت قواعد الصواريخ الثمانية..بدا أنها تترنح بصورة ما .. لكنها تماسكت ثم اندفعت فى دوى رهيب بكامل طاقاتها .. حاملة معجزة الفكر البشرى .. بعيدا .... بعيدا... بعيدا ...إلى حضن الفضاء ...

* * *

أسفل الخيمة الشاهقة والتى تكاد تغيب معالمها من فرط شفافيتها جثمت الدور القليلة فى سكون موحش... بلا أدنى حركة ظاهرية

فيما بينها .. فلا تصاعد لأدخنة أو فتح وغلق لنوافذ أو تسلل لأصوات .. لكن دارا قصية تعلوها قبة سامقة حوت بالفعل عددا غير قليل من أزواج أعين متنمرة ...

من خلف فتحة بطول وعرض جانب بأكمله فى القبة استقامت أجساد واشرأبت أعين وزمت أفواه فى جمود وصمت كاملين ...

فعند الأفق ... لدى نصفه الأيمن ....

وبانحناءة شاعرية تمتد علوا إلى غالبية الجزء المرئى من السماء وحتى يكتمل بلوره نصف الكمثرى الأسطورى ....

كانت تطل عليهم الكوكب الأم . . الأرض .. التى انفصل عنها – ما يحتلونه – منذ أيام خمسة وتحول إلى تابع لها .. قمر جديد يطاول القمر القديم عن استحياء .. وقد أسموه ..

« المارد الفضى » ...

كانت القارة الأمريكية الجنوبية برائع تضاريسها وألوانها توشك الآن على التوارى .. وشيئا فشيئا امتد المحيط الهادىء صفحة زرقاء مترامية . . تحجب غالبيتها تراكمات السحب ودوامات الأعاصير .. ووسط فرجة متسعة فى السحاب برزت جزيرتان متجاورتان ...

صاح رجل ذو أنف أفطس أخنف : جزيرتينا ...

فى حين أشارت ساعة فى معصم رجل ثان إلى الخامسة ظهراً حسب توقيت محلى ...

على الفور تحت مخالب الدجاج الباردة بعض الواقفين أماما .. ليبرز وجه وقامة المعمر الأكبر .. ولينكفىء بصدره وعنقه يسارا فى حركة مسرحية متقنة .. وينغم صوته الحاقد ويلونه فى قالب عذب ...

— أترونها حقا . . تلك المنحنية كإصبع الموز .. المروج ، الخضراء .. والأخرى الآخذه شكل الأذن البشرية .. جزيرة المعمرين .. جزيرتنا ؟

استجابت شفاه وجلة : نراها ... نراها ...

— على أى الحالات أعين الآلات الأدق إبصارا .. المهم ان تركزوا آلاتكم عليهما .. ومتى خفضت خنصرى الأسفل .. فلتطلقوا الأشعة الخرساء ... إلى .. كل ركن بأنحائهما .. لاثنتين معا .. ثم لتستدير الآلات فتوزع الأشعة على أنحاء الأرض .. لتغرق كل شبر فى موجاتها التى لا تستكين ...

تقدمت ساق وهبطت قدم خطوة للأمام ...

— معذرة .. ألم ينص على يوم العاشر من صعود المارد .. موعدا لإطلاق الأشعة ؟

— لقد شاءت إرادتنا أن تبكر بالموعد ...

– ثم أليس القصد كل الدنيا .. كل كوكب الأرض ... عدا .. جزيرتينا

– لا لا .... والجزيرتين كذلك ...

تقدمت قدمان أخريان .. وتشابكت ذراعان ...

– لكن يا كبيرنا . . فجزيرة المعمرين تضم قومنا.. ولما كان ولا واحد منهم يملك رداء واقيا ......

هز المعمر الأكبر رأسه ساخرا : إن حكام الجزيرة الخضراء يملكون أردية للوقاية .. كبيرهم وأتباعه بالذات لديهم منها.... لكن ما قيمتها وقد قدمنا موعد الإطلاق ... هه.. ما قيمتها ؟؟

تشبثت القدمان الحديدتان بالأرض فى تحد : عندئذ .....

– اخرس...... لقد قدمت الموعد .. وحددت الجزيرتين وكل أنحاء الدنيا .. ألم تفهموا بعد هدفى الأسمى .. أولم اختركم .. انتقيكم واصطفيكم لتنفردوا معى بحكم .. هذه ....

وأشار إلى الكوكب الكمثرى السادر قبالتهم فى غفلته وأحلامه ...

– ألا ترونها تدعونا طيعة .. مستسلمة بل صاغرة لدرجة الموات.. فمن أقدر بالقبض على زمامها من أدناها لأقصاها.. من أقدر منى .. وأنتم معى .. هه .. من من من من ؟

همس صوت ثالث لابد وأنه لم يع فداحة ما نطق به ...

– والاتفاق ؟

– ماذا ..

– الاتفاق السرى .. المعقود بيننا وبينهم .. ما مصيره؟

على أن رد المعمر الأكبر فاق طلقات المدفع الليزرى تلاحقا وتلمبرا ...

– ياه .. أنت أيضا .. لابد أنك جننت .. أى اتفاق تعنى .. أقصاصة الشريط الممغنط وما عليها من توقيعات ... أهى ماتنشد ... وهل تقف وثيقة مهما حوت من تأكيدات ضد مصلحة العالم .. مصلحة الدنيا بقاراتها رغم تفتتها وتبعثرها .. أن تعيش فى ظل حكمنا العادل .. الحكيم ...

ثم استدار المعمر الأكبر يواجه بقية أعوانه وقد اتقد الجمر وتناثر من عينيه ...

ثم سعل طويلا فى عصبية ...

لكنه لم يلفظ حرفا ...

فقط خفض سبابته لأسفل فى غل بالغ الوطأة ...

ولحظتها أسرعت أصابع بالضغط على عدد من الأزرار ...

لكن أشعة شل الإرادة لم تندفع من الفوهات المسلطة على الجزيرتين ولا على غيرها بأى من البقاع المرئية رقعاهاجعة جامدة على السطح الكمثرى بينما يلتف حول نفسه ببطء ورتابة أزليين ...

الشيء الوحيد الذى حدث ولم يلحظه واحد من ذوى الوجوه الواجمة .. المسمرة..وقد التصقت جباههم وأعينهم بترى الكوكب المرئى رغم فاصل آلاف الأمتار ...

الشئ الوحيد الذى حدث آنذاك ...

أن هبت نفحة ضباب هينة اجتازت الوقوف من جانب القاعة إلى الجانب المقابل..!يتساقط على الأثر الرجال بلا ضوضاء الواحد تلو الآخرون أن يملكوا دفعا لما أصابهم على غرة ...

فيما عدا رجل واحد ظل واقفا يرقب زملاءه الصرعى وقد قبعت على زاوية فمه ابتسامة مستخفة ...

* * *

طوى أبو الكل غطاء العلبة المعدنية ذات القوة التركيزية المضاعفة .. فتوقفت عروض الأحداث الناطقة والتى استغرقت دقائق أربع فحسب ...

استدار بكرسيه الدوار وعليه وسادة التدليك الكهربائية ...

أراح كفيه على فخذيه وأسدل رموشه ...

— تقرير حافل ...

من جانب أذنه اليمنى تسال صوت أفرجت عنه شفتان ورديتان وخصلات شعر متطاير ...

— المهم .. أنك قد خلصت العالم من شره ...

تمتم : ما كنت أريد .. هلاكه .. لقد دفعنى هو إلى ذلك دفعا ...

وأخذت نفسا عميقا فشمخ بروزان طيعان بصدر قميصها ...

— أعدم الحاقد نفسه بيده ...

— أجل .. موقف صعب .. ولم يكن أمامى خيار .. إما هو .. أو الوجود الإنسانى برمته ...

بغتة توقف أبو الكل .. غلبه التأثر فتحجرت الكلمات على لسانه .. عندئذ ألقى رأسه خلفا على مسند أسفنجى .. فتصاعد من مسامه تيار هواء ملطف وإيقاع موسيقى حالم ...

استرسل : لكم تحدينا مشيئة الخالق فى عقوق . لكم تطاولنا بتدمير مخلوقاته وبديع صنعه وعطائه .. ولكم أفسدنا الحياة من حولنا .. بحثا عن غايات ومثل فاسدة .. وجريا وراء الرخيص البالى من المتع و اللذائذ....... وخلال سعينا اللاهث وراء خدر أوهامنا وجامح أنانيتنا .. ظل طابعنا عبر سنى تاريخنا الحضارى .. المزيد من القتل والدمار .. والمزيد من الافناء بالجملة ...

وانسحبت السكرتيرة السمهرية القوام ...

فحين تبطىء الكلمات وتتحول شعرا .. ونغما .. حين يطلق أبو الكل العنان لفكره يتحتم تركه وحده فى سلام ...

— أجل ... وما كنت لأسمح له .. أو لغيره .. ما بقى فى

عرق ينبض .. أن يعبث من جديد بمقدراتنا .. لقد دبر السفاحون من قدمائنا المذبحة النووية .. أجهزوا على الجسد ونجا الرأس .. العقل ... واليوم ينبت سفاحون جدد .. يهدفون للإجهاز على الرأس بمذبحة حديثة قوامها ..الأشعة ... لكن حمداً لله ... فقد أعانني على سحقهم .. و بقى أن أعالج .. أمحو.. ذلك المرض العصرى .. إكسير الحياة ...

من خلف نافذة بانورامية منبعجة إلى الخارج بطول الحائط المقابل .. بزغت ضياء .. سرعان .. ما غمرت السهول المزروعة بعد طول جدب لطول تلوث بالإشعاعات والرماد المهلك ...

ولدى اعتدال أبو الكل فى كرسيه ...

لمح قرصين يطلان عليه من وسط السماء ...

أولهما له وجه مألوف تتألق ضحكته الشاعريه ...

والآخر وجهه أقل نورا .. لكن تتوهج حافته بفضة براقة .. وقد رسم قسمات بالغة الجدية .

* * *

امرأة فى طبق طائر..

استدرت بسيارتى المكشوفة ذات المقعدين مع المنعطف الحاد
آخذاً طريق الصعود إلى الجبل .. هل يصدق أحد .. بينما يتشبث
الجميع بمباهج المدينة ويلتصقون بالأهل والأصدقاء فقد كنت أوثر
شيئا مغايرا .. كنت أجد منتهى سعادتى فى الفرار إلى هذه البقعة ..
المرتفعة .. النائية عن كل عمران ...

وازداد ضغط قدمى على دواسة الوقود. واستسلمت فى شبه
إغفاءة للفحات الهواء الرطب وأنا أصفر لحنا شرقيا ...

هناك .. حيث ينتهى صعودى .. حيث دوامات الهواء المصفى
والبعد عن ضجيج العاصمة القاتل .. يوجد عالمى .. دنياى المتسعة
باتساع الكون وترامى أنحائه المجهولة ...

وأفقت على لهاث السيارة تبطىء صعودا ولا تسرع .. فازداد عناد قدمى ...

وازداد بحث عينى عن أسطح مبانى المرصد الرابضة فى تحد على قمة القطامية العريضة الزرقاء ...

ثم برزت الفتاة بغته ..

لمحتها تستند بكتفها العارى إلى نتوء صخرى .. وقد راحت تلوح بأصابع رخصة موسيقية الأطراف ...... لكن .. هل لفظتها سحابة ضباب .. فأين أطراف السحابة وما حجمها ؟ أم انبثقت من قلب نافورة دخان تبخر تكوينها على الفور ؟

أم ما الذى غشى بصرى لدى توقفى قبالتها — وقد عمتنى دهشة تشبه الصدمة — فشاهدتها تسبح إلى السيارة ولا أقول تمشى .. حتى فتحت بابها وجلست بعيدة منكمشة إلى يمينى ...

ووسط عشرات الأسئلة الحيرى التى نبتت فى رأسى على غير توقع وجدتها تسبقنى فتومىء بأصبعها تجاه ممر جانبى يهبط مبتعدا عن طريق الرئيسى الصاعد .. فى حين انحنى جسدها مشرئبا للأمام وقد شدت عضلاته عن آخرها .. وفى حين جمد وجهها فى اتجاه إصبعها تكسوه نظرة ملتاعة يائسة لأقصى الحدود ...

وتشاغلت بتفحص مضيفتى غريبة الأطوار بينما السيارة تستدير فى طريقها الجديد ...

فيما يشبه وميض السراب . . أو لمسات الضباب الرقيقة .. كانت تحيطها تلك الهالة المبهمة من انكسارات الضوء وعتمته رغم انتصاف النهار ...

تعلقت بعجلة القيادة وأنا أضغط أجفانى ثم أفتح عينى على اتساعهما .. محاولا التعمق فيما وراء الأستار المموهة التى تواجهنى...

بدت بشرتها فى لون الخمر المعتقة .. متوردة الشفتين دقيقة الأنف .. تتسع عيناها فى انحناء لأعلى قرابة الأذنين اللتين غطاهما بدورهما موج من الشعر الفاحم يتطاير خلفها مع هبات الهواء..

وبهرنى جمال عينيها . . وأحزنتنى كمية الألم والشرود المختزنة فى سوادهما .. وعلى حين أوصلتنى خطوط ثوبها الضيق إلى تفاصيل قوامها المتناسق .. والمتوج بنهدين كاملى الامتلاء والاستدارة .. كما تيقنت بنظرة واحدة من استقامة ساقيها ورقة قدميها .. فبلغت حالة الرضاء التام لانسجام معالم اللوحة التى تطالعنى .. فإن أيا من هذه الخطوط أو الملامح لم تقدم لى تفسيرا واحدا حول ماهية المراة ومن تكون إلى آخر الأسئلة المطروحة ....

أخيرا هبطنا الجبل .. وانعطفنا مع سفحه غربا بعد أن كنت أصعده منذ نحو نصف الساعة فى أتجاه الجنوب الغربى ...

ولم تغير من جمود وجهها فى تطلعه المتلهف أماما .. حتى انكشف قبالتنا جزء من الصحراء لم تطرقه عجلات سيارة قبلا .. عندئذ أشارت فى عصبية إلى تبة عالية حادة الجوانب ....

— هل أتجه إلى هناك ؟
أحنت رأسها بالإيجاب دون أن تلفظ حرفا ....
طرحت سؤالا ثانيا : قولى لى .. أتعطلت سيارتك ؟
التفتت نحوى بسرعة..أغمضت عينيها وهزت رأسها بالنفى ..
— فهل لحق السيارة حادث ما .. هل توجد إصابات ؟
بدا عليها التردد لكنها فى النهاية أشارت بما يفيد الإيجاب ...
وهممت بطرح المزيد من أسئلتى .. أوشكت أن ألقى سؤالا مباشرا .. هل هى خرساء حتى تجيبنى بالإشارة دون الكلام أم تراها أجنبية تجهل لغتى .. كدت أصل النهاية فأقيدها بضيق صدرى ونفاد ما لدى من صبر عندما وقع بصرى على المشهد المثير.. المثير .. البعيد عن الفهم والتصديق ....

فيما وراء التبة .. فوق منبسط من الرمال السوداء أو المحترقة لدرجة السواد .. قبع ساكنا .. جسم لامع يبلغ حد الاعجاز فى انسيابيته واستدارة حوافه .. ومن كثرة وألفة مانقرأ ونشاهد يوميا عرفت فى الحال أننى بإزاء طبق طائر .. يجثم حقيقة أمامى وليس فى حلم أو خيال عابر .. فهل أنا أيضا بإزاء كائنة — يحتمل — قدومها من كوكب بعيد ؟

وأسرعت أصحح معلوماتى لنفسى فقد عثر بصرى أيضا على الرجال الثلاثة المفترشى الأديم فى غير انتظام على مبعدة من الطبق المهيب ....

لقد تغير الموقف . . تعقد . . بل حفت به مخاطر أجهلها . . قد تكون وخيمة .. على حياتى . . وجودى .. فمن يقوى على تصور هذا الذى أشاهد .. أو يتوقع ولو جزءا يسيرا منه . . .

أوقفت السيارة .. قفزت إلى أقرب الأجساد الملقاة بجوار الطبق الطائر . . وكان عقلى يشتعل بكامل طاقته .. لكن الفتاة .. الكائنة الصامتة .. اعترضت طريقى .. أشارت فى غضب أن أترك هذا الملقى . . والآخرين . . وأن أتبعها .. إلى جوف الشىء الغامض داته .. هل جننت .. ماوسيلتى للتأكد من سلامة طريقى .. ومن أدرانى بما حدث لهؤلاء القتلى أو فاقدى الوعى....

لكن نظراتها الملتاعة قيدتنى .. أجبرتنى على طاعتها .. حقا .. يستحيل على إنسان أن يعصى مثل هاتين العينين البديعتين وفيهما كل هذه الضراعة والألم ...

خطوت برغمى تسع خطوات .. وربما عشرا ...

بماذا أصف قلب الطبق الطائر ؟

ربما كان أقرب إلى قاعة واحد من مراكز الحاسبات الألكترونية عندنا فى القاهرة ....

لدى المقدمة اتخذت القاعة شكل نصف الدائرة .. يتوسط جدارها الأمامى فتحة الرؤية للخارج وهذه لابد يغطيها نوع من اللدائن البالغة الصلابة .. كما تقابلت والجدار الدائرى

أجهزة التشغيل ومقعدى القيادة .. أما المؤخرة المستعرضة فشغلتها مجموعة ضخمة من الآلات الغامضة راحت تومض فى سكون .. يجاورها أربعة أزواج من الأسرة شاهدت كل اثنين يعلو أحدهما الآخر ....

وعلى السرير الأسفل يسارا .. رقدت فتاة ثانية ...

ياإلهى ... ...

واستدرت فى الحال إلى رفيقتى الصامتة ...

ماذا أقول .... أيتشابه التوائم إلى هذه الدرجة ؟

كانت الاثنتان متماثلتين فى كل ذرة من شكلهما الخارجى .. على أن رفيقتى لم تدعنى لمزيد من الفحص لوجه توأمتها .. وإنما جذبتنى من يدى إلى صندوق معدنى حين فتحته لمحت المحقن والزجاجة وبها سائل داكن القوام .. بعدئذ عادت الفتاة تقف لدى رأس توأمتها وتشير إلى فى لهفة أن أحقن عند منتصف جبهة التوأم القدر الذى حددته بأصابعها ويماثل أربعة سنتيمترات من المصل أو الدواء ...

دفعت السائل ببطء .. وما أن أخرجت طرف المحقن من الجبهة الرخوة الشبيهة بحشية القطن حتى وثبت رفيقتى فى الهواء .. واعتلت جسد توأمتها .. وراحت تذوب فى ثناياها .. متلاشية كما يتلاشى الدخان من على سطح إناء توقف غليانه ..... ربّاه أهذا ممكن ...! !

وعبر ضياعي .. حيرتي وتشتت فكري .. تناهى إلى تردد أنفاس واهنة .. ثم جاءني الهمس بعربية فصيحة في مقاطع رتيبة التنغيم فيما يشبه دقات التلغراف ...

« أشكر . لك . صنيعك . لقد . أنقذت . حياتي »

— رباه ؟؟

« بل أنقذت . حياة .. طاقم . السفينة . بأكمله »

أخيرا استعدت رباطة جأشي .. في حين اعتدلت الفتاة تغادر فراشها في حيوية دافقة .. وقد احتواها رداء معدني رقيق لامع السطح ...

تمتمت : صدقيني .. أنا لا أفهم شيئا مما يدور حولي .. من أنتم .. ما هذا الطبق الطائر أو السفينة كما تسميه .. وما سبب وجودكم في مكان غير مطروق .. ومن أين أتيتم ... من أين ؟

رنت إلى بعينيها الواسعتين فسحبت روحي مني ...

« بعد . أن . أطمئن . على . زملائي . سوف أهبك . إجابات .. على . كافة . أسئلتك »

تركتني وغادرت الطبق الطائر ... بينما توقفت لدى الفتحة الواطئة أراقب ماتفعل .. في قوة تماثل قوة الرجال أخذت تجذب رفاقها الثلاثة الواحد تلو الآخر بآلة رفيعة تشبه عصاة الساحر وأجهل عملها .. كانت ترفع جسده الهامد ثم تسحبه لتدخله

الطبق ثم ترقده على سريره . . وفى النهاية كست كلا منهم بعجون يشبه الشحم حتى غطت معالمه عن آخرها ...

فى ختام عشرين دقيقة جلست الفتاة على طرف سريرها .. وسط هالة من خيوط الضوء البراقة تعكسها سطوح ثوبها المعدنى ...

« كما . ترى . فلولاك . لهلك . طاقم . سفينتنا . الكونية . فلدى قدومك . لم . يكن . قد . تبقى . لإنقاذنا . غير . نحو . الساعة »

– من أين قدمتم ؟

قذفت هالة الشعر الفاحم جانبا ...

« نحن . وافدون . من . كوكب . صغير . تسمونه . أنتم . ديموس »

همست : قمر المشترى.. لقد كنت أراقبه من قبة مرصد القطامية .. وطالما راودنى إحساس خفى بأنه جرم .. مأهول ...

« أنت . فلكى » ؟

انحنيت : طلعت الشربينى .. باحث بمرصد القطامية .. ثم اقتربت أجلس بجوارها وأقبض على رسغها .. فأصابعها.. فأدير ذقنها نحوى ...

– وأنت ؟

« سمنى . صاحبة . اللا اسم . القادمة . من . بعيد . بعيد

جدا . أو . لتسمنى . الملاحة . الكونية . من . الدولة . الموحدة . على . الكوكب . ديموس » ...

عدت إلى الحاحى : وفيم قدومكم إلى أرضنا ؟

رفعت حاجبها فى استنكار..عادت فأرخت جفونها ونكست رأسها ...

« كوكبكم . المتخلف . المريض . اننا . نتفقده . مرتين : كل . دام . من . أعوام . أرضكم » ...

— لم .لم .. ؟؟

« نحن . نراقبكم » ...

برفق سحبت أصابعها من يدى ومشت تجلس على أحد مقعدى القيادة .. حركت أزرارا .. فانحنت مؤشرات وضوت لمبات بألوان متباينة ...

بسطت كفها نحوى .. وضعت ساقا على ساق فكشفت عن فخذ مرمرى .. عبثت فى خصلات على أذنها ثم عادت تسويها ..

« صدقنى . ان . كل . رحلة . كونية . نقوم . بها . لكوكبكم . تكلفنا . الكثير . من الجهد . وتعرضنا . لعديد . من . المخاطر . لكننا . مضطرون . مرغمون . والا . وصلتم .لنقطة . اللاعودة . فتعم . الكارثة . ويصيبنا . منها . ضرر : كبير . كبير . كبير »

هل تتكلم بالألغاز : لا أفهمك !

ابتسمت .. بان تحت شفتها العليا سن أطول من أقرانه العاجية .:
لكنه فى نظرى زادها جمالا وحسنا .. رنت إلى فى إشفاق. وقالت
من خلال ابتسامتها ...

« الأرض . تحتوى . فى . مناطق . منها . معدن . غازى .
أنتم . لم . تكتشفوه . بعد . لوجوده . فى المناطق . القطبية . وحدها
بينما . يمثل . لدينا . لب . حياتنا ... »

— وكيف علمتم فى الأصل بوجود ذلك المعدن ؟

« لأننا . دائمو . البحث . عنه . بالكواكب . المحيطة . التى .
تصلها . سفننا. الكونية . بمجرد .أن . نفد وانتهى. من. على. كوكبنا .
بينما . يخلو . منه . المريخ . والزهرة . وعطارد . وفى . الجانب .
الآخر . لا. يحتويه . زحل . ولا. اورانوس . أو : نبتون » ...

تساءلت : تتناولونه فى طعامكم .. أم تتنفسونه .: أم ......

قاطعتنى فى رفق « بل . ننثر . ذراته . الدقيقة . للغاية . فى
جو . كوكبنا . لحمايتنا . من . إشعاعات . المشترى . القريبة .
المهلكة . التى يصبها . علينا . ليلا ونهارا . ولا . تسألنى . عن . .
الكيفية . فالأجهزة . معقدة . والإجراءات . أكثر . تعقيدا » ..

التقط هنة .. خيل إلى أن هناك تضارب فى كلماتها ...

— لقد ذكرت شيئا عن مراقبتكم لنا.. ففيم المراقبة أو التجسس
طالما يمكنكم أخذ المعدن المطلوب دون علمنا ؟

تفرست فى وجهى طويلا .. بدا عليها التردد وكأنها تفتش عن معان تخفف بها وقع كلماتها .... بينما نظرات يأس تغرق عينيها كذلك ...

« رغم . أنك . فيما . يبدو . مخاوق . عاقل . مسالم . إلا . أن . غالبية . أبناء جلدتك . بل . لنقل . دولا . برمتها . على . سطح . الأرض . تعتنق . الحرب . دينا . لها . والتقاتل . دستورا . لأفرادها ..... »

كادت الصيحة تفلت من فمى : لكن ....

على أنها قرأت فكرى فيما يبدو فاعترضته « تنكر . ان.ما. يكدسونه من. سلاح كفيل . بتدمير. كوكبكم . عشرين . مرة »

قلبت شفتى : حسن .. وهدفكم من مراقبتنا ؟

هتفت « وقف . قيام . حرب . نوويه. عالمية . فيما . بين . شعوبكم . متى . وضحت . علامات . قيامها . فلا . تدمر . الأرض . ويدمر. معها . المعدن . الغازى . الذى . نحتاجه . عندئذ فلا . نصاب . بكارثه . من . جراء . حماقة . وشرور . الغالبية . فيكم » ...

— كيف ؟

خفت صوتها .. بان الأسى فى نغماته الواهنة « وكما . فعلنا . مع . عمالقة . الاطلنطيد . الذين . بلغوا . أعلى . درجات . الرقى »

وأسوأ . درجات . العدوانية . فى . وقت . واحد . فمحوناهم . أبدنا . قارتهم . حضارتهم . الجائرة . منذ . أكثر . من . ستة آلاف . عام » ...

ازداد فضولى : كيف .. كيف ؟

قطبت جبينها مثلما يفعل البشر لدينا كأنها تسترجع شيئا وعته من بين صفحات كتاب ...

« أطلقنا . عليهم. مائتى . صاروخ . نيترونى. أهلكت. جموعهم. أفنتهم . فى . لمح . البصر .. لكنها . لم . تمس . تراب . الأرض . بسوء . ولا . مستشعوبا بدائية . مسالمة . تجاور . هؤلاء . العمالقة . المستبدين » ...

طأطأت رأسى : هكذا إذن انطوت صفحة الاطلنطيديين .. ومحى ذكرهم أو كاد على مر السنين .. إلا أن الإنسان هو الإنسان . ولد ظلوما جاحدا .. فها هو ذا فى الطريق لإعادة سيرته الأولى ...

فى هذه اللحظة أزت الجدران من حولى .. اعتراها قليل من من الاهتزاز .. كانت السفينة .. الطبق الطائر .. توشك على الإقلاع .. وقبل ان أغادر الشئ الآتى من مكان أكثر احتراما لخلق الله عدت أقبض بشدة على كلتا يدى صاحبة اللااسم .. وعلى ذراعها .. وعلى خصرها ... إلخ

آه لو بقيت هذه المخلوقة على أرضى ...

آه لو أمدت أهلى بعضا من تعقل قومها . . من حكمتهم واتزانهم ...

وأفقت على شفتيها تعتصران شفتى .. فى قبلة .. ظمئ...

ظللت استدفئ بلهيبها حتى ضوى بريق . . واندلع ضوء مبهر .. غطى على ضوء الشمس .. فى أثره ارتفع الطبق الطائر .. وفى زاوية حادة انفلت عاليا يشق السماء بسرعة تعادل سرعة الشهاب ليغيب خلال ثوان فى طيات سحابة رمادية ...

بعد كم من الزمن لا أدريه أحسست برودة الجو فدلفت إلى سيارتى .. أدرت محركها فى لامبالاة . استدرت أعود أدراجى من حيث أتيت .... وقد تحجرت دمعات ساخنات على خدى .. وأسئلة صارخة فى صدرى .....

* * *

الأيقونة الذهبية ..

هل تعتقدون فى الخرافات وهل تؤمنون بأن هناك مايسمى بالقوى الخفية .. والأرواح الهائمة .. والعالم غير المنظور أو العالم السفلى ...

هل تعتقدون فى ذلك كله وتوافقون على تواجده فى مكان ما .. خفى .. بين ظهرانينا ... ؟ أما أنا فلا أعتقد فى شىء مما ذكرت البتة .. ولكن إليكم ماحدث لى شخصيا ذات يوم ولم أستطع أن أجد له تعليلا حتى يومنا الحالى .. وقد اتهمنى بها مختلفة كل من قصصت عليهم قصتى هذه .. فمن قائل أنها مختنقة أوأنها ألفت عن عمد منى كى أخفى تحركات مشبوهة لى .. ومن قائل أننى طبيب مغمور يريد الإعلان عن نفسه بوسيلة رخيصة .. بل لقد تجرأ أحدهم فوجه

إلى تهمة عجيبة – لاتستند إلى دليل – مؤداها أنني مجنون .....فهل أنا مجنون حقا ؟ ؟

سوف أترك لك أيها القارئ حرية إبداء رأيك صراحة.. وثق أنني سأقبله راضيا مهما كان ....

حدث الذى سأرويه منذ سنين بعيدة.. على التحديد عام ١٩٦٥ وفى الأيام الأولى من شهر فبراير .. وإن لم تخنى الذاكرة فقد كانت الليلة قارسة البرد ورغم النيران المشتعلة فى مدفأة الحجرة فلا زلت أذكر كيف انكمشت فى كرسى الجلدى بينما البرودة تتسلل إلى عظامى . . وكيف راحت العاصفة تعربد والهواء يزأر ويلوى وأحيانا يقبل مسرعا فيما يشبه العويل المخيف .. فى حين تلاحق سقوط قطرات المطر على زجاج النافذة فى نقرات عجلة مزعجة ....

كنت وحدى فى المنزل فى تلك الليلة .. فزوجتى ومعها ابنتانا كن لدى أقاربهن فى الريف منذ البارحة .. وخادمناالعجوز ذهب ليعود قريبة له فى المستشفى الحكومى منذ الظهيرة .. حتى كلبى الصغير « بلاكى » لم يكن حاضرا ولابد أنه كان منكمشا فى مكان ما هربا من العاصفة ...

كما قلت كنت أجلس أمام نيران المدفأة .. وقد استقر بين يدى كتاب فى شئون العلاج النفسى أقرأ فيه موضوعا عن تجربة علاجية حول الانتحار . حينما سمعت فجأة دقا متواصلا على الباب..

تعجبت .: من تراه يكون الطارق فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل .. ووسط جو العاصفة المخيفة ؟

لكنى على أية حال توجهت إلى الباب وفتحته .. وللوهلة الأولى لم أتبين شيئا وقد استقبلتنى نفحة من هواء بارد ثقيل محمل برذاذ المطر .. فصحت وأنا أنقب عبر الظلمة ...

ــ من الطارق ؟

جاءنى صوت رفيع حاد ــ لم أتبين مصدره ــ أعطانى انطباعا مباغتا بأن صاحبته تعانى ذعرا بالغا ...

ــ هل .. هل الطبيب .. هنا ؟

ــ أنا هو ...

لكن التردد شمل صوتها كذلك : أنت ؟؟

أجبت وقد تبينت تكوينا على قيد خطوات : أجل .. أدخلى .. فالمطر شديد بالخارج ...عندئذ اقتربت صاحبة التكوين وتلكأت على بعد ذراع منى فلما مددت يدى إليها تحاشتها وإذا بها تنسل بغتة إلى الداخل وهى تدفعنى من طريقها فى اضطراب وعصبية .. وهناك تحت الثريا التى تنير حجرة مكتبى تبينت قامتها وملامحها لأول مرة .. كان وجهها جميلا .. لكنه أيضا كان ينطلق بأقصى درجات الهلع ...

عيناها السوداوان كانتا متسعتين محمرتين .. وفمها الدقيق كان

أبيض الشفتين يختلج مرتعشا فى وضوح .. فى حين تناثر شعرها الأسود بأطرافه المحمرة حول رأسها الصغير وقد بدا مبتلا مشوشا كما تدلت خصلات منه فوق صدرها البديع الاستدارة وقد راح يعلو ويهبط فى سرعة وعنف .. وكأنها جرت أميالا تطاردها شياطين الأرض كلها ...

وكانت أيضا تلف حول عنقها سلسلة رفيعة تتدلى منها أيقونة ذهبية دقيقة الصنع على شكل قارب فرعونى بمجاديفه وشراعه وجسمه الانسيابى ...

وعدت اقترب منها أريد أن أساعدها فى خلع معطفها المبتل .. لكنها دفعتنى للمرة الثانية فى نفس العصبية والاضطراب السابقين.. بل زادت هذه المرة بأن رمقتنى بنظرة نارية شملتنى من رأسى لقدمى .. وجدتنى أقف أمامها متحيرا لا أعرف ماذا افعل وماذا أقول ...

لكن فجأة .. وبصورة مباغتة تماما .. دوى صوتها الحاد .. وانطلق من فمها الباهت وكأنه فحيح لأفعى توشك على الانقضاض...

وانى لأتخيل الآن – وكأنه واقع حى– نفس النظرات القاسية التى أخذت ترمينى بها والتى كانت تناقض جمالها المتسلط إلى حد بعيد .. بل اننى ما أزال أرى أمامى ذلك الفم الدقيق وهو يتقلص كاشفا عن أسنان حادة قصيرة تفجرت من بينها كلمات محمومة تقطر لوعة ...

وتقطر حقدا أسود بالغ المرارة ....

« لقد قتلتها .. لقد قتلتها واسترحت أخيرا .. قتلتها وتمتعت برؤية روحها وهى تتسلل برغمها قطرة بعد قطرة من جسدها الدنس كما كانت تستنزفني دمائى قطرة فى أعقاب أخرى . . . أجل .. لقد قتلتها بعد أن أقسمت على قتلها .. فهى تستحق الموت .. ولقد عذبتها وهى تموت وأمعنت فى تعذيبها لأروى حقدا دفينا فى صدرى .. ولأشبع رغبة عارمة فى الانتقام منها .. نعم نعم .... فهى لا تدانيها رغبة فى الوجود .. بل ان حقدى عليها حقد لم يحس به إنسان من قبل . . نما وتأصل فى أعماقى منذ نعومة أظافرى .. حقد دفعنى إلى قتلها والقضاء عليها دون ما شفقه أو رحمة مع أنها .. شقيقتى ... »

واستطردت تقص قصتها دون أن تترك لى مجالا لأى سؤال .. وكأنها نسيت وجودى .. أو كأنها لا تحس وجودا لى ولا ترانى على الإطلاق ...

«كنت فى الثالثة من عمرى حينما مات أبى فحرمت بموته الشخص الوحيد الذى كان يعطف على .. وكانت أختى فى الثانية عشرة من عمرها فهى تكبرنى بتسعة أعوام .. وأصبحت أمى هى عائلنا الوحيد بعد رحيل أبى .. فانطلقت تسرف فى استخدام إغراء جسدها الصارخ فى إدارة الكباريه الذى كان يديره أبى من قبل فهى كذلك الراقصة الأولى فيه ...

ومرت أعوام ليأخذ نضوج أختى فى الاكتمال .. ولتتبوء — بدورها — مكانا مرموقا فى الكباريه فهى ولاغرو الراقصة التالية لأمها مكانة . خلاعة وفساداً وضياعا . . .

وكانت « دلال » أختى تشبه أمها فى كل شىء . . فى طريقة حديثها اللكعة المائعة . . وفى نظراتها الساهية الخبيثة واغراء بدنها البارز الأطراف فى ثورة وطريقة رقصها الخليعة الماجنة .. بل كانت تقلدها حتى فى طريقة ضحكتها الوقحة وهى ترفع حاجبها الأيسر . . . . فقط كان هناك اختلاف بسيط . . أو قل كان اختلافا جذريا بعيد الأثر .. كان وجهها قبيحا . . .

وبالذات . كان هذا القبح هو سبب نقمتها وقسوتها الوحشية على . . كان قبحها سبب شقائى وتعاستى . . وأيضا هو سبب قتلها . . . .

وطالما سمعتهم يتهامسون وهم يشيرون إلى وإليها . . . بأن جمال وجهى يفوق جمال وجهها . . وبأنى سأكون اجدر منها بخلافة أمى . . ولكنى لم أكن آبه لهم . . فأنا أزهد ماأكون فى جوهم الموبوء . . ونقودهم القذرة . . وإعجابهم الشبيه بإعجاب الذئب بلحم ضحيته الشهى ؟

وماتت أمى .. ولا أعنى بموتها خمود الحركة فيها لانها لم توارى التراب سوى منذ عامين فقط . . ولكننى أعنى بموتها موت ماتبقى لديها من شرف . . وكرامة . . وإنسانيه . . فقد

تحول الكباريه وعلانية إلى بيت للدعارة ووكر من أوكار السرقة والاحتيال وارتكاب كل ما هو غير مشروع . . .

وكانت أمي سيدة المكان الأولى تليها أختي ولا أحد غيرهما ينازعها مكانتها ...

ورغم أن أمي ما كانت لترحمني من تقديم الطلبات للعملاء أو تعفيني من مداعبة الثقلاء منهم أحيانا .. فانها لوجه الحقيقة والصدق لم تجبرني قط على أن أكون راقصة أو أن أبيع جسدي مثلها ومثل أختي .. وهذه هي الحسنة الوحيدة التي لن أنساها لها ... أما أختي .. تلك الشيطانه في صورة إنسان قبيح الوجه .. فقد كانت على النقيض .. لا تترك فرصة تسنح لها ولا طريقا يتضح قبالتها الاسلكته لتزيد في عذابي وفي يأسي ... »

وصمتت محدثتي غريبة الأطوار لتسترد أنفاسها المبهورة .. وانتهزت الفرصة فوقفت وفتحت فمي أريد الكلام ...

– تقولين قتلتها ... متى؟ اليوم ؟ .. الآن .. أم ....

لكنها سرعان مارفعت كفها في مواجهتي .. آمرة أياى، بالصمت ...

وكأن نظراتها كانت تحوى مغناطيسا أو قوى لا قبل لى بها فقد احتبست الكلمات في حلقي على الفور .

في حين أغمضت عينيها بعد برهة من الصمت وانطلقت تتابع من جديد في صوت غير صوتها وكأنه يتعالى من أغوار سحيقة ..

« ولكم شملنى الغثيان واحتوانى انقباض مميت كلما كان صوت أختى الكريه يتعالى منذراً إياى ...

— انت . اسمعينى جيدا . سيأتى قريبا اليوم الذى أعرف فيه كيف أرغمك على إطاعة أوامرى . وعندئذ سأجعل منك راقصة مرموقة . وامرأة تعرف كيف تجتذب الرجال بإشارة منها .. وربما .. ربما ساعتها تعرفين قدرى فتشكريننى ...

يا للفظاعة .. يا للفظاعة .. ولكن ما اسرع ما تمر الايام ...

وما أسرع ما يتحقق قول أختى دلال بعد موت أمنا ... وأظنك

قرأت فى الصيف قبل الماضى خبر تلك الحادثة التى وصفتها جريدة الأهرام ب (قاتل مجنون يطلق الرصاص على راقصة معروفة) لقد انفتحت فى أعقابها أبواب الجحيم على اتساعها فى مواجهتى ... وتعلمت الرقص ...

وأتقنت نزع ملابسى التى تستر مفاتنى وأنا ألف وأدور على نغام الموسيقى قطعة وراء قطعة بين صيحات الذئاب النهمة .. وأدمنت شرب الخمر حتى أفقد الوعى ووعيت دروسا كثيرة على يدى اختى المدربة فى ممازحة المخمورين ومداعبة ذوى النفوس الوضيعة من الحيوانات الآدمية .. ودروسا متعددة فى كيفية ابتزاز نقود الضحايا من رواد الكبارية .. لكنى مع ذلك كله ظللت أحتفظ بالشىء الوحيد الذى بقى لدى ثمينا .. بعذريتى ...

اماأول الأشياء التي تعلمتها .. وأعمقها .. والتي ظلت تسرى فى دماغى منذ حداثتى .. فقد كان كرهى لأختى كما سبق وأخبرتك .. لكن رغم عظم كرهى ومقتى لها فقد عرفت فى نفس الوقت كيف أخفى ما يعتمل فى صدرى حتى اللحظة المناسبة .. وإن كنت لا أعرف تماما متى تجىء ...

وقدأتقنت وأختى طريقة معروفة لسلب نقود ضحايانا .. وكنت أقوم أنا بالدور الرئيسى فى هذه « الزحلقة » كما كنا نطلق عليها وهى طريقة سهلة ولا تتطلب وقتا كثيرا ... . فأختى تقود الضحية إلى حجرة خلفية فى الكباريه وإلى حيث أستقبله أنا .. فى غلالة رقيقة شفافة طبعا .. وأجلس مع الزبون وأبدأ فى إثارة الحيوان الرابض فى داخله .. فاذا ما بدأ هو محاولات تقبيلى ومد أصابعه إلى جسدى تدخلت أختى على الفور فقدمت الشراب ... وعادة ما تكون كأس الضيف مميزة بكبرها أو بزخرفة حافتها او بثقل قاعها .. وعادة ما يسرع الزبون فى تجرع كأسه مستعجلا اللحظة الرهيبة التى يسيطر فيها الذئب على حظيرة الدجاج . . لكن هذه اللحظة لم تكن تأتى أبدا ...

فدواما كان يحول دون مجيئها ذلك المخدر القوى الذى تضعه أختى فى كأس الزبون .. الضحية .. وحتى نسلبه نقوده ونلقيه فى الخارج . . على قارعة الطريق .. فإذا ما أفاق بعد ساعات طالت

أو قصرت فضل السكوت فى كل مرة عن إبلاغ الشرطة وبالتالى فضح نفسه .... »

وعادت محدثتى إلى صمتها أو إلى حالة اختناق الكلمات فى حنجرتها وفقدان القوى على نطقها ...

لكنها مدت كلتا يديها نحوى . . وبأصابع عمناها قبضت على رسغى فى قوة مذهلة .. وتابعت وقد بدا أنها تستمد منى ما يعينها على الكلام ...

« وحدث أخيرا ماكنت أخشاه .. ما كنت أتوجس أن تقدم أختى عليه دون اعتبار لأى وازع من ضمير ولا لأى نوع من القيم وإن كنت فى دهشة الآن (كيف أعطيتها الفرصة دون مقاومة ضارية منى من المبدأ) .. أجل كيف ؟

كان شابا معروفا من زبائن المحل الدائمين والعظيمى الثراء .. وكان دائم التطلع إلى جسدى فى نهم لا يخفى على .. وكان شرسا .. يرهبه الجميع ويعملون له ألف حساب .. وأولهم أختى .. بل إنها أيضا كانت مغرمة به .. أما أنا فعلى النقيض كنت أنفر من طباعه الجافة ومن تكبره وتفاخره بنقوده التى تملأ جيوبه . . وكنت فى نفس الوقت أعرف كيف أروضه وأروغ منه فى الوقت المناسب وقد ظن وقوعى فى شباكه ...

لكن اشتهاءه لى لم يتوقف عند حد . . بل ازداد سطوة واشتعالا .. حتى بلغت رغبته امتلاكى حد الهوس .. فاذا به يدبر

مع أختى أمرا .. فتدخله حجرتى ساعة راحتى عقب رقصة مرهقة لى وقد أخذ التعب منى مأخذه .. وأقول الحقيقة فقد توجست شراً لمقدمه .. لكنى لم أجسر على الظن بأن أختى مهما بلغ حقدها على تقدر على الغدر بى على أية صورة من الصور ...

وجلس الرجل بجوارى .. مال على واختطف قبلة سريعة منى .. وعلى الفور بدأ مداعباته الوقحة .. لكنى عجلت بالتملص من بين ذراعيه .. وحين دخلت أختى علينا وجدتنى أقف فى طرف الحجرة وأنا أنتفض من الخوف ومن الغضب معا ...

وضعت أختى كأسى الشراب على المنضدة .. وأقبلت تربت على كتفى فى برودها المعروف عنها بينما تجذب ذراعى لتعيدنى إلى جلستى بجواره .. على أن مرأى الكأس الكبيرة موضوعة فى مواجهته وتلك الأخرى الصغيرة تستكين فى مواجهتى أدخلا بعض الإطمئنان إلى نفسى ...

رفع كأسه إلى شفتيه ورفعت كأسى بدورى .. ورحنا نرشف .. ثم وضعناهما ليبدأ الاقتراب منى من جديد .. وكان الحيوان أكثر جوعا هذه المرة .. على أنى تنبهت إلى ضرورة احتمالى الدقائق الباقية وإلى أن يسرى المخدر فيه .. واحتوانى ثانية .. وقد شاب حذرى نوع من الاستسلام المرغم .. فلما ازداد لفح أنفاسه المخمورة لوجهى لم أعد قادرة على الاحتمال ... فأنشبت أظافرى فى عنقه ..

وحاولت دفعه بكل قواى .. حاولت أن الكمه وأن أقفز بعيداً عنه فى التو ....

لكنى لم أقدر على ذلك . ترى هل شلت حركتى ؟ ماالذى ألم بى ؟ ولم الحجرة تنقلب بى رأسا على عقب هكذا .. هكذا ...

وحين أفقت من مفعول المخدر–الذى وضع لى هذه المرة– كنت قد فقدت الشيء الثمين المتبقى لى ... وخلال يأسى وثورتى العارمة قررت أن أقتل الغادرة التى ضحت بى فى سبيل غرامها الفاشل .. قررت أن أمحو من الوجود أختى التعسة .. المجرمة .. فقد وضعت فى كأسى المخدر .. وقتلتنى بالحياة .... ولقد نفذت قرار قتلها قبل قدومى اليك بلحظات ..... »

لا أدرى من أين جاء فى ذلك الكم من الهدوء الذى حط على مؤخراً .. فالتفت اليها أقول ببطء ...

– لا أدرى ما الذى دفعك إلى بابى .. بينما الأجدر بك أن تتوجهى إلى الشرطة ...

تأملتنى بعينين لاترياني .. بينما التقلص الذى يشوب وجهها وحول فمها المزموم يأخذ فى التلاشى .. ويحل محله انسياب لقطرات ثقيلة متلألئة على خديها ...

– لا لم يحن دور الشرطة بعد ...

– ألن تذهبى .. اليهم ...

أرادت أن تصرخ فى وجهى : قلت لك .. ليس الآن .. .

ــ لا أفهمك ؟

تمتمت فى وهن : أختى لم تمت ...

حدقت فيها مندهشا : ولكنك قلتى .. إنك .. قتلت ....

ــ أجل أجل .. دفعت بنصل السكين الحاد إلى منتصف صدرها إلى قلبها .. وتفجرت الدماء غزيرة حارة .... لكنها لم تمت....

ــ وتركتها على هذه الحال .. وأتيت ... ؟

انسالت الدموع تغرق وجهها وقد علا نحيبها فى لوعة وأسى ..

ــ الحبيبة .. الشقيقة الوحيدة لى .. لقد راحت تردد بينما بصرها يشرد وجسدها يتراخى .... كلمة وحيدة .. واهنة .. « أريد طبيباً » .. « أريد طبيباً » .... ولما كنت أنت الطبيب الوحيد الذى أعرفه فى البلدة .. فقد أتيت اليك ...

عمنى شعور غامض بالانصياع لها ...

« هل حقا بمقدورى إنقاذ القتيلة بعد أن استقر النصل فى جسدها » ... « وبعد أن ظلت تنزف كل ذلك الوقت الطويل » ... على أن الاحساس الطاغى ظل يحثنى بل يدفعنى دفعاً للاذعان لشرف مهنتى كطبيب ...

فقلت وأنا أهب واقفاً وأجمع أدواتى فى حقيبة يدى بسرعة بالغة : إذن هيا بنا ...

بينما الهاتف يشتد دويه فى رأسى « ربما لم تمت الآن .. ربما بها رمق من حياة فأنجدها وأنقذها » :..

وقدت المرأة إلى مكان سيارتى التى أنطلقت تنهب الأرض بنا تبعاً لإرشادها اياى وسط زمجرة العاصفة التى أبت أن تهدأ حتى هذه الساعة ...

وظلت المرأة طوال الطريق جامدة الوجه مصفرة البشرة .. ولم ينطق أحدنا بحرف حتى رأيتها بغتة تشير بأصبعها وتهمس وقد بلغ توتر أعصابها منتهاه ...

— قف هنا ...

أمام بيت متهدم الجدران قديم الطلاء تحيط به حديقة قليلة الأشجار توقفت السيارة ...

وتركت مقعدها واندفعت إلى عمق الحديقة ... فسحبت حقيبتى واتبعتها ... وأخذت ترتقى درجات السلم قفزاً وأنا فى أعقابها .. حتى توقفت قبالة باب واطىء لتلقى بجسدها على مصراعيه فتنفلت وتغوص فى كتلة الظلام بداخله .....

وقفت بدورى يعترينى التردد لثوان . . وناديت عليها ...

— ياسيدتى .. أين أنت ..

ولم تجبنى ...

— هل أنرت الكهرباء ؟

وظل السكون هو المسيطر . فأخرجت علبة ثقابي وأشعلت عوداً وتسللت وراء ضوئه وأضواء عيدان أخرى عبر الممر الذى قابلنى .. بينما أنادى على المرأة التى قادتنى إلى هنا . ولا من مجيب ...

ترى أين اختفت فجأة ؟

هل فرت لسبب ما وتركتنى مع جثة أختها بعد أن تأكدت من موتها ...

أم أنها استدرجتنى .. لفخ نصبته لى ؟؟

لكن عزيمتى لم توهن وصلابة مهنتى ظلت تشد أزرى.. وانطلقت أسير من حجرة إلى حجرة دون أن ألتى أحداً أو أسمع صوتا إلى أن قابلت باباً مفتوح أحد مصراعيه . فنفذت منه ...

وكان بالفعل هناك جثمان ينزوى على حافة فراش عريض بلا حراك .. فلما اقتربت أكثر وسلطت عليه ضوء عود الثقاب شاهدت السكين المغروسة إلى مقبضها فى صدر الضحية . . وشاهدت بقع الدم المتسعة حول الجرح الغائر وبأنحاء متفرقة من الفراش والأرضية وقطع الأثاث المجاورة ...

ومن خبرتى الطويلة أيقنت على الفور أن الضحية قد لفظت أنفاسها منذ ثلاثين دقيقة ...

على أنني بعد تأكدى من عدم جدوى وجو دى . . وحين هممت بالاستدارة وترك الحجرة .. لمحت شيئا يرسل بصيصا من بريق لدى قدمى الضحية ... والتقطته . . وكان نفس الأيقونة الذهبية بسلسلتها الرفعية ملقاة وقد لوثتها بقعة من دم متجمد . ..

وتذكرت زائرتى الغريبة التى كانت تشتعل بالثورة وصوتها يصم أذناى منذ برهة من الزمن ... حقا . . إلى أين تراها ذهبت ..... « ياسيدتى أين أنت .. أين اختفيت » ...

وسمعت صوتها يجيب ندائى من غور سحيق ...

لا .. بل .. كانت أصوات عدة . . بعيدة .. عريضة . . صدئة ...

بل وتحركت الجثة .. رفعت رأسها وجلست وانحنت تحدق فى وجهى بقسوة ...

ثم لمستنى .. ولمستنى أطراف أخرى باردة . . مثلجة . . وسقطت أرضا وغبت عن الوعى ...

حين فتحت عيناى أيها القارئ بعد فترة – لا أدرى بالضبط كم طالت – وتبينت مايحيطنى من وجوه قلقة مترقبة . . رأيت طبيبا .. وممرضة لا بل اثنتين . . وضابط شرطه .. ووجوه أخرى خيل إلى أن بعضها مألوف أيضا ...

ومن الأفواه المحيطة سرعان ماألممت بكيفية العثور على . . لقد

وجدنى رجل شرطة ملقى فى الطريق بالقرب من مسكنى .. وكنت بكامل ملابسى مغمى على .. فى حين استقرت سيارتى على قيد خطوات منى ..ومن المعاينة الأولى لم يتبينوا أية أضرار لحقت جسدى .. كما لم يلحظوا فقد شىء يخصنى فحافظتى تمتلئ بالنقود وحقيبتى كما هى لم تفتح ....

لكنى جلست وصحت متسائلا : الجثة . . هل عثرتم عليها ؟

تساءل ضابط الشرطة : أى جثة تعنى ؟

ـ جثة أختها ....

ـ جثة من تعنى هه ؟

ـ جثة دلال أخت المرأة الغريبة التى قتلتها واختفت . . الجثة البشعة التى راحت تحدق فى بنظراتها القاسية البشعة ....

لكن ظل الجواب وفى إصرار كبير « إنه لم توجد جثة على الاطلاق » ...

وفيما بعد ومهما طال الزمن فإنه لم يتغير أبدا . . « لم نر ولم نعثر على أى جثة فى أى مكان » ...

نعم ..لم يجدوا شيئا برغم بحثهم المضنى وبرغم إصرارى الذى أثار حولى كل هذه الشائعات ..

كما ذهبت أيضا جميع محاولاتى الخاصة اليائسة من أجل العثور على أى منهما ...

القاتلة أو المقتولة ...

لكن حسن ...

فقد بقى شيء – فى تقديرى إنه حاسم – لم أخبرك به بعد أيها القارىء ...

فقد وجد رجل الشرطة الذى عثر على ملقى فى الطريق شيئا بين أصابعى .. وكنت أقبض عليه بقوة ... لقد وجد سلسلة رفيعة تتدلى منها أيقونة ذهبية على شكل قارب فرعونى بمجاديفه وشراعه وجسمه الانسيابى ....

* * *

الذى تحــدى الإعصار

« الفارق بين الحياة والموت . .
بين الوجود والعدم . .
خيط رفيع . .
أن تحقق شيئاً . . تنجز عملا . .
ليس بالضرورة ضخما ولا عملاقا . .
بل المهم . .
أن يحوى جزءا من ذاتك . .
والأروع . . كل ذاتك . .

(١)

« ذرات الرمل تقبل من العدم .. تتطاير بلا صوت .. تتجمع بلا صوت .. ثم تغلى .. وتفور .. فى عصبية فى جنون . . وتروح تتسرب .. تتسلل .. إلى أن تكتسح .. عبر الشقوق أوهى الشقوق تكتسح ما يقابلها .. من كل جانب تحكم مخالبها الدقيقة الشيطانية .. ومن فوقها تتزلزل الأرض ... الأديم كله يرتجف .. بل الوجود السحيق اللانهائى يتخبط .. ويتحرك الجبل .. يمد أذرعا وأرجلا وأقداما خرافية .. الجبل ثقيل ثقيل .. بارتفاع هامته الجامدة الكئيبة وقوامه الصلب المتغضن .. وبالأطنان . . ملايين الأطنان من جلمود صخره .. من جلمود سحنته المقيتة المتحدية .. الجبل الأصم الأعمى يطبق .. يجثم فى وحشية .. يسحق .. يسحق .. يسحق ...

تتفكك صخوره تتكسر أحجاره .. ويظل يطبق ويسحق ... فى عنف شرس يسحق ويسحق ويسحق .. .. فتنضغط الأشياء .. وسط دوامات الغليان وتناطح الصقيع فى أعمق الأعماق .. فى أسفل سافلين .. فى الحضيض ...

تنضغط العظام .. تصير عجينا . . مخاطا . : فتتفجر أنهر الدماء والنخاع .. ويتلقفها الاعصار . . يمتصها إلى أحشائه . . ويظل يدور ويتلاطم بين الأرض والسماء .... فى انطلاقته عاتياً . فى دماره شريراً سفاحا ...

وتتقلب أوجاع البشر .... منذ الزمن البعيد .. منذ ما قبل الزمن . . منذ اللاوجود ... تتقلب وتختلط وتتعالى فى هدير مدو مجلجل ....

آه ....

آه ....

ويترنح صدى أوجاع وآلام الخلائق عبر بلايين الأجرام السماوية ...

وتنفلق الصدور .. ينشق الكون ... آه .... وتردد جنبات الأبدية الإيقاع الحنظلى البشع فى مرارته وأساه . .. إن انبثاق الألم يسرى إلى مالا نهاية ...

إن اندلاع الحريق يمتد إلى كل مكان .. حولى . . وداخلى .. وفى أعماق ...

لكن .. من أنا .. من أكون وقد ابتلعتنى دهور العدم .. ولم.. الظلام الحالك يغشانى ... يلفنى ... وكل الصمت يطبق على أنفاسى ... بل لم حشرجة أنفاسى وتقطع لحمى . . وتبعثر

روحي . . . . لقد اختلط عظمي ولحمي ودمي ... وامتزجت خلاياي .. لقد انضغط كياني كله وسجن داخل علبة الحديد . الجهنمية .. فلا أملك مجرد استدعاء نفس .. والا فما الذي جلب جيوش الألم ووحشة الصمت والظلام تعتصر بقايا روحي .. وإلا فأين هي حواسي .. أين حدود وأبعاد ما حولي ...

لم التخبط والتيه والسقوط المريع في الأعماق .. إلى القرار .. إلى الغور الدفين المتلاشي ...

بينما الأبعاد تضيق ... تتميع وتضيع ...

والتقط نفسا واحدا واهنا ....

من أنا ... من أنا ....

أين أنا ... أين .. أنا ....

ولاح البصيص في الأقاصي .. بصيص باهت بارد . . على هديه تراقصت معالم مشوشة .. ومددت خيطا نسجته من بقايا عصب ممزق .. نسجته مدة عام كامل .. بعصبية محمومة ....

عامر .... عامر ماذا ...

انفلت الصدى يتعلق بأوتار الذاكرة فتتقطع وتنهار...

عامر ... ص ... ا ... بر ..... عامر ... صابر ....
عامر صابر ...

تشبثت بأظافرى الدامية فى بطن البئر الملساء .. أى جهد خارق أبذل لأرفع أشلائى قدرا .. فأعود أسقط .. أهوى .. ثانية .. فى الحال ...

لكنى أستميت فى حرق وقودى البشرى .. فلا أنجح إلا فى الارتفاع قامة أو قامتين .. ويظل الطريق من قاع الهوة إلى خارجها طويلا .. بشعا .. تملؤه أسنان الصخر وذوائب المدى المشهرة فى تحد .. نحوى ...

ويومض بصيص من ضوء جديد .. فينجاب جزء من العتمة الضاربة .. ورغم خيوط العنكبوت .. سميكة .. معقدة .. رغم تشابك أغصان الغابة غليظة متيبسة .. تتضح فى الأفق خطوط وزوايا ودوائر مألوفة .. ثم بغتة تروح الخطوط والزوايا تتراقص .. تتجمع .. وأقراص الدوائر تتداخل .. تتشابك .. ويزدحم الأفق ..

وأقبض بأسنانى .. لا لم تتبق أسنان .. لم يتبق لدى فم .. ولا وجه ...

أقبض بعظام خدى وصدرى .. أيضا قد تفتت عظمى وتهرأ لحمى وخلاياى ...

فأضطر لالقاء الخيط المنسوج من بقايا عصبى الممزق .. كأمل وحيد باق .. فى حين تنهال الجمرات فوق .. تنشد احتوائى ..

تنشد خنقى .. ورغم المعوقات النابعة من الجحيم أتعرف هذه المرة على حوائط رمادية .. انها حجرة .. وأميز عبر الضباب المنضغط بالحجرة منضدة .. بل ثلاث مناضد مستطيلة . بيضاء . . أجل بيضاء .. تتراص عليها عشرات القوارير والأكواب وقد ملأتها سوائل متباينة القوام والألوان ...

منضدتان ترتكنان إلى حائطين .. تصنعان زاوية قائمة . . والثالثة تتوسط الحجرة..وأقترب من المنضدة التى تتوسط الحجرة فأجد القوارير تكدس عليها أكثر ..وأحجام القوارير أكبر..وعلى ركن بالمنضدة استقرهاون تجاوره عين تسخين غازية.. وقد وضع فوق العين وعاء بلورى كمثرى الشكل ...

ثم إن ثمة شخصا .. رجلا قصير مكتنزا .. ويرتدى معطفا أبيض اللون كذلك .. يروح ويجىء عبرالحجرة فى قلق ظاهر.. يتناول مسحوقا من الوعاء المعدنى .. أو حصى مكورا من تلك العلبة الزرقاء .. أو يمسك القنينة المحنية العنق ويصب منها سائلا متميع القوام.. أو يلقى خمس أوست أو ربما ملعقتين فحسب من مجروش يأخذه من صندوق ورق مقوى .. حتى يتسلل إلى سمعه ما يشبه دقات ساعة حائطية تتوارى فى مكان ما بخارج الحجرة ....

أربع همهمات ضعيفات .. متعاقبات ...

عندئذ يلقى الرجل القصير المكتنز ببصره فى لهفة إلى داخل الوعاء القابع على الشعلة المتقدة .. فيجد محتواه تتصاعد منه الأبخرة ..

ويبدو أن الأمور تسير وفق هوى الرجل عندما يستعيد رأسه يكلله الابتهاج .. فيمسك قرطاسا جلديا يتناول منه حبة فى لون الورد يلقى بالحبة إلى قلب الوعاء البلورى ...

لكن بدلا من ....

لكن ينير الوعاء .. والمنضدة .. والحجرة بمحتواها .. ضوء شديد مبهر ...

يومض على غير انتظار ...

وتتناثر جنبات المكان ....

ثم يتفجر السواد بلا رعود بلا أصوات..... وينتهى كل شئ كل شئ ...

ترى قبلا .. من . كان . الرجل . القصير . المكتنز ؟

ثم يتناول الرجل القرطاس الجلدى ....

ترى .. من . القصير . المكتنز ؟

ثم يلقى الرجل بالحبة الوردية التى يأخذها ....

من . القصير . المكتنز ؟

لكن ينير الوعاء والمنضدة والحجرة وميض بلا صوت .. وينتهى ....

من كان .. من كان ؟ ؟ ؟

وانفتحت طاقة فولاذية رغم رتاجها المحكم المتين ....

كان الرجل القصير المكتنز . . كان عامر صابر .... أنا »

ترك الرجال الأربعة الفراش الذى كانوا ينكبون عليه تحت هالة الضوء القوى .. وتراجعوا بضع خطوات إلى الوراء .. فقط عاد أحدهم وجذب ملاءة مطرزة فوق كومة من اللحم والضمادات والأجهزة الطبية المتصلة بها .. فى حين أطفأ آخر اللمبة المسلطة على جانب الحائط ....

وتحت ضوء الحجرة العادى امتد بينهم نقاش حاد سيطرت عليه الحيرة والعصبية والتناقض فى الرأى .. وقد نسى أربعتهم كلية الجمع المنتظر بالخارج . . والدقائق التى تسرع بلا أى رابط .. ورغم صغر الحجرة وتواجد الرجال الأربعة فإن قلة الأثاث زادت فى أبعادها ورحابة جوانبها . . فبالإضافة إلى الفراش الملاصق من يمينه للحائط لم تكن الحجرة تضم غير دولاب ذى ضلفتين يستقر لدى قدمى الفراش .. كما واجهت جانب الفراش الأيسر منضدة وكرسى مبطن استقر عند الحائط المجاور لباب الدخول..تعلوها لوحة زيتية عريضة من رسم الفنان منير إبراهيم...

أخيرا فتح أكبر الرجال سنا باب الحجرة فتلقفته فى الحال عدد من الأعين المبرقة المفتوحة على اتساعها .. لكنه اكتفى بالإشارة إلى وجه عليه مسحة من جمال وخطوط غائرة من قلق ....

واندفعت المرأة الشابة فى لهفة تلقى بجسدها تجاه الباب المفتوح .. تصحبها أكثر من ستة أزواج من الأعين وستة أخرى من الآذان ....

هتفت فى توسل : سيعيش ؟

تقدم الطبيب الذى وجهت إليه كلمتها . . كان نحيفا وليس عجوزا رغم هالة الشعر الأبيض التى تعلوه . . . طأطأ رأسه وقال : إننا نبذل أقصى ماق وسعنا ...

– بل قل .. يوجد أمل ؟

اقترب طبيب ثان ذو وجه ناحل وذقن عريضة مفلوجة تحت رأس صلعاء ويضع على عينيه عوينات نظر ضخمة سميكة الحجارة ....

– لا نخفى عليك .. فى حالة نادرة كهذه . . يصبح الأمل .. ضئيلا ....

ترقرقت الدموع فى مقلتيها : مستحيل . . أعطوه حقنا أخرى .. أعطوه من دمى .. افعلوا أى شىء . . فقط أنقذوه .. اجعلوه يعيش ....

ربت الطبيب الأكبر سنا على كتفها وهمس من تحت هالة الشعر الأبيض ....

– الله هو الذى يهب الحياة ....

لكن المرأة مدت وجهها في مواجهتهم ورفعت أنفها متحدية : إذن سأنقله إلى المستشفى ...

على أن طبيبا ثالثا يحمل أنفا محنيا وعينين مرخيتا الجفنين تمتم في برود ...

ـ سبق .. أن قررنا .. أن نقله وهو على هذه الحال معناه إعدامه فورا ...

بينما كرر الطبيب الأكبر سنا : صدقيني يا سيدتي . . لا يمكن نقله .. بل غير مسموح لأحد برؤياه . . ونحن نبذل من أجله أقصى طاقاتنا .. وأما الدور الأكبر والأهم فهو على الله .. وحده..

ما كادت المرأة تستوعب الكلمات القاسية حتى اصفر لونها وترنحت ثم .. سقطت مغشيا عليها .. فتقاطر الباقون حولها وتشاغلوا بإسعافها ...

عندئذ تسلل طبيب الأسرة وصديقهم تسبقه عويناته الضخمة إلى الحجرة التي خرجوا منها .. في حين هبط الأطباء الثلاثة الباقون من الطابق العلوى إلى الطابق الأرضى . . وغادروا الفيلا الكائنة بطرف المعادى الشرقى .. في سكون ...

* * *

(٢)

« والآن .. الآن .... فلأبدأ التصدى لهجمات الخوف والفزع التى تلاحقنى .. الآن لأكبح قبضات الألم الرهيب ولو لثوان .. الآن الآن لابد وأن أقهر ذلك الضياع الذى يعمى ويشل مداركى ... لكن لأهدأ قبلا .. لألم أشتاتى .. ثم . لأتمهل فى استخدام تلك الخلايا الهلامية .. الرخوة .. التى أثق فى وجودها بمكان محدد لدى . . ولأساعدها رغم انتهاك طاقتى ووهنها . : لأساعدها بما تبقى عندى من قوى . . لتنهض . . فتقوم بتبديد أستار الظلام الملقاة على . . ولتتألق . . فتتفحص ما ألم بى . . كافة مالحقنى .. بميزانها الكهربى الدقيق ....

الرجل القصير المكتنز .. الرجل عامر صابر .. كان شخصى أنا .. والحجرة المتسعة .. بما تضم من مناضد ثلاث كسيت بالقيشانى وزودت بصنابير المياه ومواسير الغاز والهواء المضغوط .. وكذا بأفران وعيون التسخين وأجهزة القياس الكهربائية . .

وماتحتوى من أرفف أزدحمت بالدجانات وقوارير الأحماض والقلويات وبالمبردات والمراود وأجهزة الترشيح والتقطير .. الحجرة بكافة أدواتها ومحتواها ....

كانت حجرة معملى أنا .....

فما الذى حدث للرجل .. أقصد لى .... بداخلها .. أقصد بداخل حجرة المعمل .... فى ذلك الزمن الثانى .. البعيد .. أجل .. مهلا .. ولتأخذى كامل أهبتك أيتها الخلايا فى استدعاء مايعن لك من مخزون الذكريات ....

يبدو أن العاصفة كانت أقرب منها تصورت .. يبدو أنها تلتصق بى اللحظة بعينها ...

آه .... يا للعذاب الذى تعانيه خلاياى .. بل التفتت الذى تكابده عظامى .. ذرات عظامى .. يا لاتساع الصحراء التى تتشتت خلالها أفكارى ....

فى ذلك الزمن البعيد .. القريب.. لاأدرى .. وقفت أجرى التجربة الكيميائية بعد أن أكدت حساباتى أنها ستكون مثيرة .. خطيرة ...

آه .... أتذكر الآن بوضوح أكثر . . فأنا أمتهن تدريس الكيمياء العضوية والكيمياء الكهربائية . . وخبرتى تنصب على المواد المتفجرة ...

هه .. تماما .. المواد المتفجرة ....

وتزداد خلاياى نشاطا وتفاعلا .. فأرانى وقد اعتذرت لزوجتى عن مشاركتها تناول الغداء .. هو ذلك فأنا متزوج ولدى طفلة أيضا .. ثم أغلقت على باب معملى .. وانكببت أجرى التجربة التى رتبت القيام بها منذ أسابيع .. واستغرقنى عملى فنسيت كافة ما يعد بى عن حدود الحجرة التى تحتوينى ....

وبينما أنا أمسك الحبة الوردية والتى بها فى الوعاء إذ ....

إذ بذلك الوميض . . فى ضوء شمس الظهيرة اللافح . . فى ضوء الف شمس . . يعم المكان . . يسيطر على المرئيات . . يمحو المرئيات . . وإذ بالهدير ...... لا لم يكن هديرا لم يكن هناك أى صوت .. كيف .. بل لقد اندفع الصوت الهادر بينما أنا أبتعد .. أغيب فى الأعماق أنزلق إلى الأغوار .. أجل .. تذكرت جيدا . . فقد أعقب الوميض .. لحقه بجزء من الثانية .. نمو عملاق من الجن .. امتصنى .. أو قصف بى .. فى غير رحمة .. إنتزعنى بمخالبه من وقفتى . . أطارنى لأعلى ثم ألقى بى .. بعيدا .. بعيدا .. إلى الركن القصى .. بعيدا.. بعيدا .. إلى أقصى أطراف كرة الأرض ...

ياالهى ... قد تعبت ... تعبت ... لم يعد فى استطاعتى بذل مزيد من الجهد .. لقد نفد معينى .. نفد مابقى لدى من قوة .. من حيوية .. وتلاشت قدرتى مرة أخرى على تذكر المزيد ..... »

* * *

ركز الرجل نظراته الحيرى تجاه الفراش وعليه المحتوى القابع دون ما حركة وكأنه جزء من مادته الصماء .. لكنه لم يقو على المضى فأشاح بوجهه عنه .. نحاه تجاه السقف .. وكان قد نزع عويناته فبدت عيناه ضيقتان مذعورتان كعينى فأر أطبق عليه فكا مصيدة ...

وفى محبسه وسط جدران المصيدة استغرقه تفكير عميق ...

انه على طول ممارسته الطب وأساليب العلاج ..وعلى امتداد خبراته فيما شاهد وعاصر من أحداث معقدة ونماذج متباينة مذهلة.. فإنه لم يقابل فى حياته مثل الذى يراه ويلمسه على بعد خطوات منه ...

عامر صابر زميل صباه .. وشبابه .. ورفيق أحلى أيامه...

عامر صابر صديق عمره ..وأيضا قد أصبح منذ زواجه . . هووأسرته .. أقرب عملائه اليه ...

فما الذى فى امكانه اللحظة .. وبكل مايختزن من علم ومعرفة.. وخبرة وبكل ما يملك من مقدرة .. أن يقدم لانقاذ حياته من خاتمة قاسية .. مريعة .. محتمة...

لكن من المبدأ فهل إنقاذ حياته أمر متيسر حقا ؟

لقد نتج عن انفجار المعمل فى عامر صابر . . أن احترق وجهه .. وبترت ذراعاه واحدى ساقيه بالتحديد ساقه اليسرى..

وأصيب بعديد من الحروق الخطرة والأقل خطورة والثانوية امتدت بأنحاء جسده .. خاصة وجهه وعنقه مع كتفه وأعلى صدره ...

والأهم .. وكنتيجة لاصابته الغائرة فقد الرجل عامر صابر حواسه نهائيا.. وإلى غير رجعة .. فقد بصره وسمعه وقدرته على الشم والتذوق واللمس . . وأيضا قدرته على الكلام ...

فأى أمل يرجى لكائن بشرى على هذا الحال من التعطل والتمزق ؟ ؟

عاد الطبيب يتطلع فى أسى إلى الفراش .. عاد يتفحص الواقع المأساوى ربما للمرة الألف ...

هذه الكتلة من العظم المكسو باللحم المحترق والمختفى أغلبها تحت طبقة كثيفة من الضمادات .. الكتلة المختلطة المعالم التى تنسكب الأدوية والمحاليل وقطرات الجليكوز إلى أعماقها دون أن يبدو عليها استجابة من أى نوع . . اللهم عدا بعض التقلصات والاختلاجات . . وعدا النفس الذى يتردد ضعيفا إذا ما قرب المرء اذنه من الفتحة المسودة مكان الفم ...

كتلة اللحم هذه .. . ما الذى جعل الروح تتمسك بها ولا تغادرها ؟

على أن الشىء المذهل وبالصورة التى لا تصدق . . ضربات قلب عامر .. وهى تعلن فى تحد عن سلامة أدائها إلى حد كبير .. فأى قوة مجهولة تقف وراء خفقات ذلك القلب . . أى إرادة

صابة تمونه بدفقات الحياة .. او تحركه ليتشبث بالحياة ...

وتتألق الأفكار برأس الطبيب .. يعيد العوينات فوق أنفه . . يشبك ذراعيه . . ويهمس لنفسه ... ، انها ليست مجرد رغبة غريزية فى البقاء .. انها نفحة من الإله تقلب كل موازين الطبيعة من اجل ان يظل الجسد المسجى بمنأى عن الموت . . لفترة مجهولة.. والحكمة مجهولة..بل ان عناية الاله لتتجلى فى الكثير مما أحاط بظروف الحادث وكيفية استدراجه . . ولعل أبرزها السرعة التى لحقوا بها عامر عقب الانفجار مباشرة ....

ووجم الطبيب برهة . . لكنه قطب جبينه وهز رأسه وهو يضيف فى تمتمة تشبه البكاء ...

– رباه .. هل يعيش ؟ فاذا تمت المعجزة . . فعلى أى الصور ستكون حياته .. بدون . ... بدون .. أية حواس ...

وعندما تسللت الزوجة فى هدوء ونظراتها تحمل العديد من الأسئلة والاستفسارات التى لم تكل لحظة عن طرحها وتكرار فحواها .. فان إجابة الطبيب الصديق لم تختلف عن ردوده السابقة ...

« لقد أعطيناه الأمصال اللازمة فى حينها . . وأجرينا له نقلا موفقا للدم .. وها نحن .. أنا وزملائى من كبار الأطباء المستشارين.. نواصل إمداده بما يحتاجه من مضادات حيوية ومانعات للحساسية ومسكنات ومطهرات .. كما نقوم بتغذيته بحقن الفيتامينات والحديد والأملاح المعدنية .. وسائل الجلوكوز الحيوى ... »

(٣)

« الحقيقة الصارخة قد أطلت على أخيرا ...

كيف لم أعرفها قبلا ...

كيف لم أتبين علاماتها .. لحنها الجنائزى . . عصفها وقصفها وتدميرها ...

أم ترانى كنت أهرب من مجرد الاعتراف بامكانية حدوثها..

أنا الآن حبيس أبشع أنواع السجون قسوة ووحشية .. أنا رهين أقصى البقاع نأيا عن العمران . . عن أهلى ومعارفى .. عن كافة بنى الانسان ...

أنا .. فقدت .. يقينا .... جميع حواسى ...

وبلا حواس ينتهى كل اتصال لى بالآخرين .. بالدنيا .. أصبح لصيق ذلك الجب المظلم فى قلب الجبل . . فى وسط الوادى .. فى أعماق البحر . . أصبح المدفون حيا فى تيه الصحراء .. فى لانهائية

لأصقاع القطبية .. أو حتى ذلك الشارد الهائم على وجهه .. وحيدا.. على ثرى كوكب بعيد .. موحش .. موحش ...

وأتوقف ...

فى كل مرة أنساق فيها برغمى .. أظل أزحف وربما أسحل .. ثم أحاول .. أناضل .. كى أتوقف.. وأعود مرة بعد مرات ومرات أزجر نفسى .. أسب الجبان المرتعد الكامن فى داخلى .. وآمره .. آمر كل ذرة فى كيانى .. بالطاعة .. بالتزام الهدوء والثبات . ..

فليس بكل هذا الفزع يناقش مصير إنسان .. مصيرى ...

إنما السكينة وضبط الأعصاب هما وسيلتى الوحيدة للخلاص إن كان هناك أمل فى خلاص .. ولابد أن يوجد أمل ولو كخيط رفيع من شعاع .. فأنا واحد من مزاولى رياضةاليوجا الذهنية . . فلا أقل من اللجوء إلى تعاليمها فى المحنة التى ألمت بى . . لا أقل من استدعاء أسسها الصارمة لتعيننى ...

ولأرتب أفكارى فى المبدأ ...

لاستخدم عقلى بتؤدة وبطء ... وفى منتهى الرفق ...

أولا .. لابد وأن عددا كبيرا من الأيام . . من الساعات الطوال .. قد مرلى ....

وثانيا فرغم ما أبذل من جهد خارق للسيطرة على مشاعرى ولم شتات نفسى فلا مفر من التسليم بوجود معونة خارجية تساندنى

والدليل تلك الوخزات التى تثير ما تخلف لدى من إحساس بأجزاء جسدى.. وأرجح أن تكون حقنا ..وتلك السيور أو الأحزمة أو الحبال التى تلف انحائى .. أتخيل أنها ضمادات.

ثم أيضا الهزات التى تنتابنى . . تلحق أنحائى .. وتمتد خلالا لها محفات أو وسائد أو إطراف لينة . . أصابع مثلا .. فهل يقلبوننى لتخفيف آلامى ؟

وهكذا أصل إلى ذرى استنتاجاتى . . بوجود آخرين على مقربة منى .. فهل بينهم زوجتى وابنتى . . وهل معهم طبيب .. منطقى أن يكون معهم واحد .. أغلب الظن أنه صديقى سيف الدين ...

أم أنى بعيد عن هؤلاء .. أقبع بين غرباء فى مستشفى ...

على أى الحالات فأنا على يقين يقارب التأكد من تواجد أناس بجوارى ...

لكن .. فيم يفيدنى قربهم أو بعدهم وكل منا لا يمكنه الاتصال بالآخر . . قد يكونون حقا على بعد خطوات . . بل على قيد شعرة لكنى لا أستطيع رؤياهم ولا سماعهم أو التفاهم معهم ..وهم رغما عن مشاهدتى ورغما عن كامل حريتهم فى التصرف لا يملكون وسيلة مخاطبتى ... فكيف أنتزع منهم الإجابة على مئات الأسئلة التى اختزنها واضيف إليها كل ثانية جديدا ...

لا أعرف ..... لا أعرف .....

لقد قابل عقلى طريقا مسدودا فهل يلجأ الى الانهيار ثانية ...
هل يستسلم وأستسلم معه الى الغيبوبة هربا من أسئلة بلا إجابات.. من لغز عويص بلا حل ...

هذا لن يكون . . لابد من إيجاد وسيلة ما . . يتحتم على أن أعثر على الطريق الصحيح قبل أن أفقد اتزانى .. قبل أن أجن ..... يتحتم على وبكل السبل ان أكسر قيدى.. ان أفر من سجنى ...»

* * *

— ماذا قررت !

— هل لابد من استدعائهم ثانية ؟

— أرى أن لا مفر أمامنا ...

تململت قليلا فى وقفتها.. أعطته ظهر ثوبها العارى وابتعدت فى بطء وهى تحرص الا يقع بصرها فى دائرة الفراش العريضة .. ثم استدارت بغتة ...

— قل لى .. ما جدوى استمرار تواجد طبيب الأسرة هذا .. وما .. ما الداعى لمجئ طبيبين آخرين أو حتى عشرة.. طالما يؤكد الكل أن لا أمل على الإطلاق ...

امتد عنقه وانفرجت أسنانه المستطيلة المزدحمة ليقول فى عجلة وكأنه يخشى دخول ثالث عليهما : وجود الأطباء المتخصصين ..

وفحصهم له .. رغم عجزهم عن بذل المزيد .. دليل واضح على حرصك وتفانيك من أجله ...

أفلتت الصيحة من بين شفتيها وإن نجحت فى خنقها : أو لم يكفهم ما قدمت حتى الآن ...

همس فى برود ، أنت تحتاجين فى كل لحظة ما يعضد موقفك ...

لوحت بأصابع دقيقة رخصة : كأنك لا تدرى بفداحة ما أنفقت من مال ؟

هز رأسه : الزوجة الوفية تستدين .. لتنقذ حياة زوجها ...

– رغم علمها بأن مصيره الموت ...

– رغم يقينها من ذلك ...

صمت واستدار . فاستدار معه وجه أسد يلمع على خاتم فى إصبعه . . .

* * *

(٤)

« یاإلهی .. أیکتب علی الفشل و أنا لم أکد أبدأ .. لكن هل كنت موقنا أصلا من النجاح .. بل إن الحكم بالنجاح أو الفشل لابد وأن تسبقه محاولة أكيدة .. طويلة .. تستمر ساعات مضنية .. وأياما فكم تراني أمضيت من وقت في إجراء محاولتي .... حسب إحساسي الحبيس معي فقد مر على زمن قاس .. بالغ المرارة .. لكني لم أصل إلى أية نتيجة ...

لقد ركزت كافة قدراتي الإرادية المنبثقة من ذرا خلايا مخي بغرض إيصال رسالة إلى أقرب كائن يجاورني .. يجاور الفراش الساخن الذي يضم جثماني الحي ...

وفشلت المحاولة .. لم يستجب لرسالتي أحد .. جمعت أفكاري .. ركزتها لتتلاقى في بؤرة محددة .. حتى أقول لمن يجاورني .. للقابع الرابض بجانبي أيا يكون .. (إن ثلاث وخزات مؤلمات متعاقبات

بسن مدبب فى أعلى فخذى الأيمن تعنى «نعم. أنا اسمعك») ....
لكنى لم أحس الوخزات وبالتالى فلم يتلق رسالتى التخاطرية
مخلوق . . . ويعم شرايينى حنق شديد . . ويسحقنى القنوط
من جديد . . فليس الأمر على هذه البساطة ولا يتم بهذه
السرعة .. وإلا ما عد نقل الرغبات أو الرؤى . . أو الخواطر
الكاملة . . دون استخدام الحواس..ظاهرة تتحدى العلم.. ومعجزة
ينفرد بها ندرة من البشر ...

وسرعان ما قذفت بى أفكارى الشاردة نحو اتجاه مغاير ...

لدى أول تخرجى من الجامعة .. عندما كانت تبهرنى وتستحوذ
على الكتب التى تتحدث عن الظواهر الخارقة .. فأظل أقرأ وأطالع
بين أوراقها الصفر ملايين الأمثلة التى تعلن عن وجود قوى خارقة
وفوق الطبيعية تنبثق من الكائنات الحية . . تتدفق من أعماقها ...

وفى غمرة إعجابى الصبيانى وقتذاك كنت أتخيل نفسى وقد
نقلت بقدرة قادر نخلة أو شجرة من حديقتنا إلى فناء كليتى . .
أو أمكننى قراءة ورقة هامة دون أن تخرجها يد من مكمنها ..
بل طالما تصورت قدرتى الفذة على إسقاط طائرات العدو وبمجرد
تركيز بصرى عليها ...

ولم أذهب بعيدا .. لقد وفقت مرتين فى تخمين صيغة جانب
كبير من أسئلة الامتحان ...

فهل يتحقق لى الآن . . وقد سجنت وأفكارى وحدنا . .

وفى ظرفى الميؤوس منه هذا .... أن أقبض على إحدى رؤاى الحالمة الغامضة وأحولها بطريقة ما .. إلى واقع حقيقى ...

كيف ... كيف ... كيف ....

لأرجع بذاكرتى إذن إلى محتوى ذلك الكتاب الضخم عن أبرز « الظواهر البشرية الخارقة ».. ولأستعيد سطوره حرفا وراء حرف.. إننى أضعه دواما فى دولابى إلى جوار القوارير المحكمة التى تضم الغازات الطيارة المتفجرة .. وحتى يكون الكتاب فى متناول يدى كما هى القوارير هامة وفى متناول يدى . . وكما أضع بجانبهم أيضا ذلك القرطاس الذى به حبات المادة الفوارة الوردية ...

لكن القرطاس قد اختفى مؤخرا بحباته من رف دولابى .. فكيف ترانى أجريت التجربة الأخيرة التى تفجرت فى .. آه .. تذكرت .. لقد عثرت زوجتى على القرطاس الجلدى فبادرت بإعطائه ، اياى ...

عموما هو موضوع لا يهم..والأجدر بى أن أركز على كيفية تحقيق إحدى رؤاى الغامضة .. فكيف .. كيف .. كيف أتوصل إلى ذلك ؟ ؟ »

* * *

سحب الشاب الوسيم نفسا من لفافته ثم راح يعيد تفحص أنحاء الحديقة الرابضة تحته فى ألفة وتلذذ . . لقد تعرف على أشجارها

وحفظ أركانها وأشكال أحواضها منذ مولده .. ولعله لم يشغف بمكان فى حياته كما شغف بهذه البقعة الرطبة الظليلة .. ثم ابتلع ريقه وعض على نواجزه وهو يحس الحنق على أبيه رغم رحيله منذ اعوام فلولا إسراف ذلك الأب ما اضطر إلى بيع البيت والحديقة معا .. لتنتقل ملكيتهما إلى الكيميائى المتعجرف . . الناجح فى كل شيء إلا الاهتمام بالحديقة بالذات ...

وركز الشاب بصره على مؤخرتها .. فيما بين الباب الخلفى وبين الجراج .. طالما حفل هذا الجزء فى الماضى بأصناف من أشجار الفاكهة تعاقبت أسفلها أنواع فصلية من الخضر.. أما الآن... فقد تحولت المنطقة إلى ساحة جرداء تبتلع ثلث الحديقة إن لم تزد ولا يشغلها عود أخضر واحد ...

أطلق الشاب زفرة حارة .. كظيمة .. فإن الكيميائى لم ينجح فقط فى الاستيلاء على المكان الأثير لديه وإنما فاز أيضا بابنة خالته التى شاركته ذكريات الحديقة وذكريات أخرى غيرها . . ابنة خالته الحبيبة .. محسنة ... وعبرت عينى الشاب نظرة قاسية اظلمت لها معالم اللوحة كلها .. وتجاذبته مشاعر تتباين بين اللهفة ونفاد الصبر .. فقذف ببقية لفافته من أعلى الشرفة واستدار نحو الداخل وكلمات مبهمة تنضغط بين أسنانه ...

« لم يتبق .. إلا .. القليل ... أقل القليل ... »

فى ركن البهو قابلته مرآة بيضاوية عالية..وتفحص صورته خلالها

ليجد نفسه لامع الشعر مشذب الشارب لاغبار على هندامه .. فلما التفت يمينا رأى الشاب خالته وابنتها تجلسان على طرف الأريكة الواطئة .. وهم أن يقول شيئا حينما سبقه باب الحجرة المواجه فى الصرير .. والانفراج عن قامة الرجل الذى لا يستريح إليه إن لم يبغضه كما يبغض الكيميائى صاحب البيت ...

اشرأب عنق الأم فى فضول ...

تحرك وجه الإبنة الشاحب ببطء ورتابة ...

فى حين جر الطبيب الخارج توا قدميه إلى أقرب مقعد عريض وترك جسده يغوص بين مسنديه ...

بدت عينا الطبيب فيما وراء عويناته زائغتين . . مفتوحتين على اتساعهما .. كان وجهه ممتقعا .. متقلصا .. يعانى صراعا دفينا ...

— هل جد جديد . . أشملته نوبة ارتعاد ثانية ؟

أفلتتها الأم مبحوحة متوجسة . . لكن الطبيب هرب بعينيه تجاه السقف كأنه لم يسمع صوتها .. عندئذ بذل الشاب جهدا لإخفاء انفعاله تقدم يقطع مسار نظرات الطبيب وقد رسم تعبيرا حزينا على قسماته ...

— لقد انتهى ؟

جاهد الطبيب لينتزع نفسه من دوامة أفكاره : هه ....

— لا بد أن .. عامر .. قد انتهى ... ؟

هز الطبيب صلعته وسوالفه البنية : لا .. ما يزال حيا ...

ألحت الأم : هي انتكاسة إذا يا دكتور سيف الدين ؟

ـ بل لم يطرأ عليه أى تغير ...

عندئذ انهارت أعصاب الزوجة فانفلت زمام شفتيها ...

ـ لكن نظراتك توحى بحدوث أمر جلل ...

تمتم الطبيب وقد ازداد اتساع عينيه وبروز محجريهما .. حتى بدا جانب وجهه مرعبا ...

ـ لا أدرى .. ولكنى أقسم .. إنه يبذل جهداً خارقا فوق طاقة البشر ...

اقتربت منه الزوجة ووراءها أمها وقد تدلى فكيهما ...

ـ ما الذى تحاول قوله ؟؟

استطرد الطبيب شاردا : لو رافبتم التفاتات رأسه المتشنجة الحادة من جانب لآخر .. لو أمعنتم النظر فى كيفية تقلص جبهته وانكماش كهفى عينيه وسط ما يحيطهما من ضمادات .. ثم تلك الاختلاجات المريعة التى تعترى صدغيه .. وذقنه إلى عنقه .... لو .. تفحصتم ارتجافات جسده . . ذراعيه .. ساقه السليمة وساقه المبتورة .. على ما يسببه ذلك كله من ألم له . . أقصى درجات الألم ..... لتيقنتم مثلى .. إن كل حركة من حركاته .. كل اختلاجة مهما بدت طفيفة هينة .. إنما تعنى أمرا محددا لا ثانى له ....

تساءل فحيح غير آدمى ويصعب تحديد مصدره ...

قل– .. ماالذى تقصده ؟

– ان عامرا يبذل جهدا فوق طاقته كما ذكرت .. إنه يدمر أو يبتر جانبا من كيانه .. من خلاصة روحه ....

– لماذا .. لماذا ؟

– التفسير صعب .. مستعص .. فقط الذى أستشعره .. أنه من خلال محاولاته المستميتة هذه .. إنما يريد .. أن يبعث برسالة لأحدنا ...

(٥)

« أستطيع أن أحدد فى كثير من التأكيد أننى أحسن حالا اللحظة .. ماتزال الآلام تجتاح أنحائى. ولكنها آلام قد خفت واستكانت قليلا . وأما اننى بطول ما مربى من خضوع وامتثال لها قد ألفت وطأتها .. وإن كنت أرجح أيضا أننى اكتسب مناعة وجلدا ضدها.. وربما تفوقا .. كلما أوغل بى الزمن المغلق الذى يطوينى فى غيابه... على أن الأهم .. قد بدأ صفاء ذهنى يعود إلى .. أفكارى أخذت تومض وتنساب فى حرية أكبر . . بل إنى أحس تألقا ونشاطا وانتعاشا يجتاحون عقلى فأحلق معهم .. فى حين تتلمسنى أهداب أثيرية بعيدة من أمل ...

ووجدت الفرصة مواتية لآمر ملايين الخلايا بمخى .. وآلاف المراكز العصبية بأنحاء بدنى .. بالاستعداد .. فى الحال سنبدأ متضافرين حملة جديدة .. للاتصال بالعالم الرابض على بعد خطوات منا .. أو الذى يلمسنا فعلا بين الحين والحين .... ولكم أتمنى وجود ،

شخص بالذات إلى جوارى .. هو فى اعتقادى الأقرب إلى فهمى .. واستشعار مكنون روحى .. ليت سيف الدين محجوب .. صديقى وطبيبى .. ليته أحد القابعين حولى ...

وأعود إلى تصميمى ... فعن طريق تمارين اليوجا التى طالما مارستها استطعت مؤخرا أن أتحكم فى نشاط قلبى .. لقد أبطأت دقاته إلى حد كبير .. وكذا أمكننى الإقلال من سرعة تنفسى وكأننى أسبح تحت أطنان من الماء دون أن أفكر فى الصعود لملء رئتى .... والآن فإن المهمة أصعب .. الصراع الذى يجب أن أخوضه أكثر مشقة وعنفا .. انه يتحتم على ربط كافة أجهزتى العصبية فى تكتل واحد عارم من أجل إطلاق قدراتى الكشفية الدفينة .. وبذا أصل إلى قمة التركيز العقلى المطلق .. الذى يقودنى بدوره إلى التحرر من الرباط الذى يقيدنى إلى جسدى المادى ... وبتحررى من المادة أرتفع إلى الآماد العليا .. التى تتيح لى الانفلات نحو الأثير .. العدم .. اللانهائية .. لأصل عبرهم إلى الجسد الآخر القريب .. وفيما بعد البعيد .. من حدود جسدى الذى تركته »...

* * *

الأيام أكملت خمسة أسابيع .. وقد بدأ الكل يحس بتوالى الفشل والدخول فى متاهات الانتكاس وعدم التحسن .. وأصبح السؤال الذى تتناقله الشفاه فى وهن وقنوط « ثم ماذا بعد ؟ »...

وقد راوده اليأس — هو نفسه — أكثر من مرة ... بل تمنى لو واتته الشجاعة فأعطى عامرا حقنة قاتلة تريحه نهائيا من عذابه .... لكنه سرعان ما كان يتذكر القسم الذى ردده يوم تخرجه .. ثم يهجع فى ختام ثورته إلى عقليته العلمية التى طالما أقنعته من قبل أن الطب يعرف أحيانا المعجزات .. بل ان مجرد تشبث عامر بالحياة رغم مايعتصره من استحالة فى استمرارها لهو فى حد ذاته معجزة إلهية كبرى ...

ومد الطبيب سيف الدين يده . . تناول الإطار المذهب .. وراح يقارن فى إشفاق بين قسمات الوجه الذى يحده الإطار وبين معالم كتلة اللحم ...

هذه الجبهة وما يعلوها من شعر فى سواد الليل لقد حلت محلها كرة رمادية أو هى أقرب إلى السواد الكالح منقرة السطح يستحيل تمييز أولها من آخرها .. والعينان .. لقد استبدلا فى لحظة بتجويفين بشعين .. بل أين هو الأنف الواضح فى الصورة من ذلك التجويف الغائر والذى يشمل مكان الفم والشفتين معا ..ومن ورائهما اللسان.. والأذنان تآكلتا .. وانغلقتا . . والعنق تيبس تنقر .. تميعت انسيابيته .. وبقية كتلة اللحم اختلط أولها بآخرها .. فهل هذه .. هى .. حقا .. عامر صابر ؟

فى النهاية أعاد الطبيب الصورة مكانها .. واختلس نظرة عجلى

تجاه الفراش يحمله من لحم وضمادات .. ثم أمسك القلم وشرع يكتب المزيد من الإرشادات وأدوية العلاج ...

لكن القلم بدا عصيا على غير العادة .. أبى أن يسطر أحرفاً لاتينية من اليسار إلى اليمين . . ولدهشته وجده برغمه .. يتحرك وئيدا .. وئيدا .. من اليمين فى اتجاه إلى اليسار ....

« أخير .. رأ . . اظ . . اظننى .. قد .. نجحت .. نجحت .. فى اجتذاب .. وتجميع .. خطوط ضبابية .. شاذة .. شكلت منها .. ملامح .. الكائن .. الذى .. الذى ... يجلس قبالتى .. مرتبكا .. مرتكنا .. إلى جسم مسطح .. منضدة .. مكتب .. ويمسك شيئا .. إن كان قلما .. فها أنا ذا .. قد دفعته .. للكتابة .... أنا .. عامر .. صابر ..... فمن أنت ؟ »

رباه .. هل هذا معقول .. هل الذى ينسكب أمام بصره مصدره ذلك الجثمان الهامد على بعد مترين منه ... إلا أن الطبيب وقد سرت فى أعماقه دماء حارة .. وعمه تحفز غامر .. لم يترك نفسه نهبا لمزيد من الحيرة والتردد إنما أمسك قلمه .. وبينما الفرحة تهزه خط على تذكرة العلاج وبأحرف كبيرة ظن أنها تكون أيسر فى الرؤية والقراءة . . .

(أنا صديقك الدكتور سيف الدين محجوب) ...

• • •

وفى الخارج كاد الطبيب يصطدم بالخادمة ويسقط ما تحمله

بين يديها خلال اندفاعه المحموم تجاه الجالسين .. فلما أخبرهم بمعجزة اتصال عامر به التى تمت منذ ثوان وجم الكل وران عليهم صمت مطبق ثقيل .. فيما عدا الزوجة التى غاض بصرها رهبت تقف فى حركة آلية وقد انفتح فمها برغمها .. وصدر عنها فحيح مشروخ ..

— هل أنت متأكد ؟

— قد حدث ذلك توا ...

— كيف ؟

— لقد أملى على رسالة ...

— ياه ؟؟؟

— بلا أى صوت .. وجدت القلم وأصابعى تقبض عليه .. يكتب كلاما .. هو بالتأكيد من إملائه ...

عندئذ أفلتت المرأة آهة مكتومة مكلومة وسقطت مكان جلستها الأولى دون أن تضيف حرفا .. أما طلب الطبيب أن يبيت فى حجرة زوجها فقد نأت نبراته حتى بعد تكرارها عن سمعها المغلق الملىء بطنين داخلى غريب ...

وعلى بعد أمتار قليلة .. من وراء باب فتح خلسة وأغلق خلسة .. وقف رجل يشعل لفافة فى بطء وقد أطلق لفكره العنان . . الآن قد جد فى الموقف ما يستدعى إعادة الفحص وإعادة ترتيب الأمور ...

* * *

(٦)

« هل حقا توصلت إلى جانب من القوة الهائلة الكامنة بداخلى . .
هل عرفت مكانها .. حركت مفاتيحها .. أخضعت جزءا ولو يسيرا
منها .» لإرادتى .. لمشيئتى ...

أى جهد خارق بذلت لأركز كل خلجة فى نفسى .. كل
ذرة فى عقلى .. لأحرر روحى من قيد جسدى .. فتناول اتحادها
الأعظم مع قوى أعماق .. المستمدة من قوى الكون اللانهائية ......

قد توصل إنسان ما قبل التاريخ .. إنسان العهود السحيقة..
والعهود القديمة . . إلى استدعاء الطاقات غير العادية لجسده .. إلى
السيطرة عليها ومن ثم التحكم فى الموجودات عن طريقها .. لكن
مع قدوم الآلة . عصر التكنولوجيا . . اندثرت قدرات الإنسان
الداخلية .. أعلن عجزه الروحى .. نبذ طاقاته الروحية واستسلم
لما يحيطه من مادة منظورة ملموسة ...

لكن القدر أراد أن يصنع شيئا مغايرا.. هيأ لى الظرف الأمثل.. النكبة التى حاقت بى هى الظرف الأمثل .ه نعرفت طريق السعى إلى داخلى.. الى الأبواب المغلقة التى تحوى كنوز طاقاتى المدهشة المعجزة.. [فأعيد اكتشافها .. احياءها .. اخضاعها.. رغم جبروت قيدى بعد أن فقدت حواسى ...

أجل .. بالتأكيد.. لقد فاقت نتيجة محاولاتى المضنية المعقدة كل مطمح رجوته .. أو هدف دار بخيالى ...

إلا أن الوقت لدى ضيق فلأسرع بابتلاع فرحتى فى جوفى .. الوقت قبالتى بالغ الأضغاط .. بالغ التبخر والتلاشى.. فى حين أنى لم أبدأ بعد السعى لتحقيق هدفى الأكبر الذى تفتق عنه فكرى منذ لحظات ...

وما المانع .... بالأمس .. بل منذ أبعد من الأمس أمكننى التسلل الى خارجى .. أمكننى تحريك القلم فى يد صديقى الطبيب ليكتب ما قصدت أن أعبر به عن لسانى .. لكن هذه قطرة أو هى خطوة فى سبيل أن أصل لتحقيق معجزة أضخم.. أكثر دويا.. أكثر هولا..معجزة المعجزات التى لم يفكر بشرى قبلى فى إنجازها ...

فهل ما يزال أمامى متسع من وقت .. من تردد لضربات قلب... من عمر ...

وحملت تفكيرى المنطقى إلى صديقى الطبيب ورجوته الصراحة فى الإجابة .. أهى مجرد ساعات محدودات من مقاومة غير فعالة

لبدن أنهك لأقصاه .. أم أن الأمر يحتمل الاستمرار فى النضال لمزيد من الأيام قد تصل شهرا آخر وربما شهرين .. وفيها الكفاية .... »

تسلط على الطبيب حنق ممض . : فأمسك القلم وخط أحرفا سريعة مائجة يرد بها على السؤال الخبيث...

ــ عامر .. أنصت إلى .. لم أعرف أن الإلحاد نقيصة فى طبعك .. وإلا فلتكف عن الانقياد لما يراودك من أفكار بالغة السواد والشطط...

« ولكنى جاد فيما أسأل يا سيف الدين »

ــ وهل علمت عنى ممارستى علم الغيب حتى تطالبنى بما هو فى مقدور الله وحده ؟

تحرك القلم ببطء « أرجوك .. يمكنك كطبيب أن تحدد .. ساعات .. أيام .. أم أطمع أكثر فى شهور ؟ »

ــ لا .. مستحيل .. لا يمكننى أن أطاول الله فى مشيئته .. كل ما فى مقدورى أن أؤكده .. أن مقاومتك رائعة.. مذهلة.. وأن كفاحك على هذه الوتيرة سيقودك حتما الى اجتياز كل الصعاب.. سيقودك إلى الشفاء ...

بدا على القلم التردد .. مال على أصابع الطبيب وكأن وهنا قد اعتراه .. لكنه اعتدل وتابع الكتابة ...

« الشفاء . . هدف لا أرجوه . . صدقنى .. بل الحياة ذاتها

نعمة لا أسعى إليها .. وهل تسميها حياة أو قبس من حياة .. بينما تكون بلا حواس .. بلا أى نوع من الاتصال بالآخرين »

– أولا تتصل بى بالفعل ؟

انغرس القلم فى الورقة يخط أحرفا غليظة مغتاظة «وأنى لك معرفة.. مدى ما أبذل من جهد .. حتى يتيسر لك رؤية أحرفى هذه ؟ »

غطى الخجل وجه الطبيب : بل أقصد أن نجاحك فى الاتصال بى .. بهذه الكيفية الخارقة .. إنما يعنى إمكانية .. انطلاق المعجزة مع آخرين ...

عاد القلم إلى بطئه « من أدراك .. ولم لا تقول إنى استنفد قوى .. سرعان ما تخبو ... ؟؟ »

– عدنا الى اليأس .. والبعد عن طريق الإله ...

التف القلم حول نفسه.. انبرم وكأنه يعلن احتجاجه أو عدم رضاه ...

« فيم الجدل فى موضوعات .. فرعية .. اسمع .. لنتناول ما هو أهم بالنسبة لى »

اتضح الجد عبر حدقتى الطبيب بينما يعجل بالكتابة ...

– انى منتظر لما تشير به على ...

عاد القلم إلى الاسترخاء أو التلكؤ بين أصابع الطبيب .. استمر القلم فى استلقائه برهة خيل للرجل خلالها أن شحنات من أفكار

ضبابية تتدفق إلى جوفه المحتوى أنبوبة الحبر الجاف ..حتى شعر بتراقصه .. واعتداله صلبا متحديا .. ثم بدئه الكتابة فى انتظام وتألق مدهشين ...

« إذا .. فلأستعرض معك أولا قصة غرام كان يجيش بها صدرى و ما يزال منذ أمد بعيد »

— قصة غرام !

انطلق القلم يدون أحرفه فى سلاسة وهويكاد يفر من قبضة الطبيب...

« قبل تعلق بالكيمياء .. بل قبيل التحاق بالجامعة .. وبتحديد أكثر عقب وفاة أبى . . وكنت فى التاسعة عشرة من عمرى . . إذ بمكتبة أبى تؤول الى بأكملها . . وبالذات بما تضم من أهم ماحتوت عليه ..وأعنى بمكتبةالمرحوم جدى:: شوكتالصيداوى»

يكتب الطبيب كلمة اعتراضية : تعنى المنوم المغناطيسى المعروف ؟

تابع القلم « هو بعينه.. وقد التهمت أنا وليس أبى مقتنيات جدى الثمينة .. من كتب صفراء أشك كثيرا فى وجود مثيل لها بمكتبات أخرى »

— وما الذى كانت تضمه كتب جدك ؟

سجل القلم متر ويا معتزا : أربعة وأربعين كتابا كانت تتكلم جميعها عن قدرات الإنسان الخارقة للطبيعة »

ـ كتب فى السحر ؟

نطح القلم الورقة بذؤابته فى حنق « لا .. ليس السحر .. إنما أعنى علوم ما وراء الطبيعة . . ودور الكائن البشرى . .فى التحكم أو السيطرة من خلالها .... »

وهم الطبيب أن يفصح عن تساؤل عبر تفكيره لكن القلم استمر على تقدمه فى اتجاهه الأول تحكمه إرادة الرجل كتلة اللحم..

« هذه الكتب استحوذت على تفكيرى كله .. طوتنى بين سطورها .. مأسورا مبهورا .. لكن كتب جدى ظلت البداية فقط .. فى حين نما غرامى واستفحل حتى وجدتنى مجنونا باقتناء المزيد منها .. رحت أبحث عن مثيلاتها فى كل ركن من بلدى .. فلما سافرت للخارج عدت محملا بعشرات تبحث فى نفس موضوعاتها الغريبة الشيقة ..

لكن .. ما محتوى هذه الكتب .. وفى أى العلوم تبحث وتنقب ....

توقف القلم بضع ثوان . . ثم انكفأ يتابع وقد بدا فى تأنق ما يخط من أحرف استطالت نهاياتها ما يدل على مبلغ هيامه وتعلقه بالموضوع ...

... انها ببساطة ووضوح .. تتناول بالعرض والتفسير ظواهر الأحاسيس والأفعال البشرية الخارقة . . تتناول التخاطر والجلاء البصرى والاستشفاف . . والتنبؤ والإدراك المسبق . . والتحكم فى أعضاء الجسم . . والأهم من كافة ما ذكرت .. او الأصعب والأخطر . . إنها تناقش أوجه النظر المختلفة . . حول ذرا معجزات الخوارق البشرية .. كتحريك المادة وإطلاق الطاقات الكامنة . . والتأثير بالخير والشر على الكائنات البعيدة . إلى آخره من الظواهر التى تعد بالقطع فوق كل ما عودتنا عليه الطبيعة .. أو ما عرفناه عنها .....

أجل ..هذه الأشياء الغامضة الشديدة الإبهام كانت غرامى الأول.. أو قل غرامى الأكبر.. والذى مازلت أقع تحت سيطرته إلى لحظتنا الحالية .. إلا أنى لكثرة مشاغلى فى أبحاث الكيمياء بالجامعة اضطررت لتركه وليس التخلى عنه .. فترة محددة .. اكتفيت خلالها بمزاولة رياضة اليوجا مؤقتا ...

ارتسم الاقتناع على وجه الطبيب .. نطقت قسماته بالرضاء فقد توصل إلى تفسير اللغز مؤخرا ...

كتب الطبيب : والآن ها أنت ذا تبادر باستغلال مأساتك. لتصل عن طريقها إلى تحقيق حلمك الأكبر ... حلم حياتك إن صح التعبير .. وإنى أهنئك مخلصا .. فقد أمكنك إشعال طاقتك

الدفينة إلى منتهاها .. وبذا توصلت لتحريك القلم بين أصابعى .. فأمكنك مراسلتى ...

واعترض القلم على كلمات الطبيب .. بل خيل للأخير أن القلم رغم عدم مرونة قوامه قد تقوس نفيا وغضبا ...

« لا ياسيف الدين.. ليس بجرد تحريك قلم على بعد متر أو مترين هو ما أبغى .. إن هدفى أبعد وأعمق من ذلك بكثير .. هدفى تحقيق الظاهرة متكاملة .. إنى أنشد السيطرة على قواى الداخلية جميعها .. إننى .. أنشد التوصل إلى القوى التى تحرك المادة على بعد عشرات الأمتار .. تنقل شجرة .. تطلق سيارة .. تشفى مريضا .. تجلب نقودا .. تبنى جدارا .. وما ذكرته فى النهاية عزيزى .. هو الذى أزمعت .. تحقيقه ...

كتب الطبيب فى وجل : هل قررت أن تبنى .. جدارا !!

« أجل .. تماما »

— عجبا .. فبأى كيفية سيمكنك ذلك ؟

رد القلم فى بطء ولا مبالاة « إليك هى .. انى أطلب منك إحضار أحجار وأسمنت ورمل »

انكب الطبيب يكتب فى سرعة محمومة : لكن هذا يضر بك للغاية يا عامر . منذ لحظة أكدت مدى ما تبذله من جهد لمجرد

تحريك القلم .. هذا الذى تقبض عليه أصابعى .. فما بالك بتحريك الأحجار وما أشبه . . إن جهدا هائلا كهذا تبذله فى حالة كحالتك .. يؤدى بك إلى مصير محدد هو القتل ... أنت ستقتل نفسك يا عامر ...

عاد القلم إلى غضبه الأهوج ينطح الورقة محاولا اختراقها ، بلمؤابته الرفيعة ...

« سبق أن أكدت لك .. الموت أهون عندى من حياة عاطلة بلا حواس ولا قدرة على الاتصال بما يحيطنى ... من أجل ذلك فلابد لى من استغلال حالتى لأقصى الحدود .. لتحقيق غاية علمية خيرة ...

دمدم الطبيب عبر ما خطه : كأنك تريد أن تجعل نفسك حقلا لإحدى تجاربك .. لأسخفها .. وأبعدها عن المنطق وعن التفكير السليم .. وأيضا عن الحاجة ...

إلاأن القلم رفع مؤخرته فى عناد وتصميم « بل انها فرصة وحيدة فريدة لا تتأتى إلا واحد فى البليون.. لاختيار قدرة الإنسان الحقيقية الدفينة التى منحها له الله فأهملها عن حمق وجهل .. والآن .. فلتبدأ فى التعاقد على إحضار حمولة سيارة كاملة من طوب البناء الأحمر.. وعدد عشرين شيكارة أسمنت .. وحمولة عشرة أمتار رمل أصفر .... وانت تم ف الجزء الشمالى الشرقى من خلفية حديقتنا . . ذلك الخالى من المزروعات .. أريد منك أن

فهى الأشياء التى ذكرتها وتضعها بهذا المكان .. وان احتجت نقودا فاطلبها من زوجتى ....

أسرع الطبيب يكتب : المسألة ليست مسألة نقود . . لكنى أعترض .. وأعترض .. وأعترض ...

وقد شملت اعتراضات الطبيب الصديق صفحة كاملة من الورق دون أن تجد القلم أية رغبة للرد عليها ولو بحرف يتيم ...

• • •

(٧)

في خطى مترنحة قصد زوجة صديقه مباشرة .. مال على أذنها وهمس يطلب مخاطبتها على انفراد ...

شملت الزوجة الحاضرين ببصرها لا شعوريا.. كانت جلستها تتوسط أمها وجارة عجوز دأبت على القدوم لمواساتها.. في حين قبع ابن خالتها بعيدا كعادته ...

أخيرا هبت تقف .. وتتحرك بلا إرادة ...

— اتصل بك ... هه؟

تمتم : منذ لحظة ...

تقلص فمها : أكاد أجن .. لم لا يفعلها معي ...

ربت الطبيب على كتفها مجاملا : ربما يخصني باتصاله لطول تعارفنا .. أو لأنني قبل كل شيء طبيبه .. ويحتمل .. لتصادف وجودي عند بدء محاولته الاتصال بأحدنا .. أو .....

صعدت الدماء إلى وجهها فانبرت تقاطعه فى تحد لا مبر له : أو ماذا ؟

– على أى الحالات .. فلم يفصح لى عما يدور فى رأسه ...

ازدادت نظراتها تحديا : ما الذى تعنيه ؟

شملها ببصره متأملا : لا شئ .. والأفضل أن تناقشى قائمة طلبات عاجلة ...

– أوله طلبات ؟؟

– أصر على ضرورة إحضار سيارة طوب أحمر . . وكذا رمل وأسمنت ...

نطقت قسماتها بدهشة حقيقية : هو . يريد طوبا ورملا . . وأسمنتا ؟ . . . . لماذا ؟

تشاغل بالعبث فى طرف السماعة التى تحيط يداياتها بعنقه ...

– حسب ما فهمت منه . . من كتابات القلم الذى يعبر عنه .. فهو مقتنع تماما بأنه راحل حتما ..ولن يعيش ... فى أقل من الثانية مع شعاعا مبها عبر حدقتيها لكنها نجحت فى إغلاق عينيها عليه ..:

– هذا إحساسه إذن ...

– للأسف نعم . . وهو نفس ما تحملنى أفكارى الوجلة المترددة للاعتقاد به .. لذا فأرجوك أن ترفضى كافة ما يطلب .. لأجل .. صالحه ...

– لكنك لم تحدد يا دكتور سبب طلبه أدوات البناء .. هذه ...

رفع فمه تجاه أذنها كأنه يكشف عن سر خطير : سيجرى تجربة يظنها مثيرة . . سيحاول بناء جدار فى ركن الحديقة المجاور للجراج .. عن طريق .. قدراته الذاتية الدفينة .. أعنى أنه سيشيده بواسطة تسخيره قواه غير المرئية لإخضاع المادة .. وتحريكها .. عن بعد ...

همهمت وهى تسوى شعرها بأناملها فتضوى فصوص زرقاء فى صفاء زرقة السماء حول جيدها ...

– تسخير قواه .. وهل بقيت لديه قوة مهما تكن بينما هو مكوم ملقى .. هكذا فى سريره .. تملؤه الجراح وتهده الصدمة والأوجاع ؟

تشبث الطبيب بكلماتها : أليس كذلك .. ألست معى ياسيدتى .. لو أجبناه لطلبه هذا .. سوف يبدد اليسير المتبقى من جهد وعزم لديه .. فى .. فى مجرد هراء .. أما ما الذى سيترتب على سلوكه .. فلا شىء إلا هلاكه ... ياه .. فكم أرى الصورة قاتمة ومخيفة .. مخيفة ...

على ان الزوجة طرحت سؤلا عابرا : كأنك تجد أمام عامر فرصة للإفلات من مصيره .. لو ادخر كل جهده ؟

– لم أقل ذلك صراحة ...

– إذاً ففيم اعتراضك على تنفيذ رغبة اه ؟

... أصر الطبيب وقد أشاح بوجهه فى حنق : على الطبيب ألا يفقد الأمل إطلاقا .. وعليه أن يجاهد من أجل تحقيق غرضه بكافة السبل ...

همت أن تواصل اعتراضاتها عندما سبقها صوت واهن من خلفها فيه نعومة وفيه قدر من التكلف ...

- الرجل يجتاز ساعاته الأواخر .. ويتحتم علينا إجابة كل رغبة له مهما بدت شاذة .. أو مكلفة ...

استدار رأساهما .. كان ابن الخالة .. حماد الألفى .. يقف خلفهما .. ملتصق القدمين والساقين متشابك الذراعين محنى القامة أماما بوجهه الأحمر المستدير وأذنيه المكورتين كأنه تمثال عصرى لبوذا ...

عندئذ شهقت الزوجة أو انتفضت .. كمن يفيق من إغماءة لا إرادية .. أو يتغلب على أحاسيس كادت تقبره .. وبالفعل أسرعت تتلقف التعبير وتردده ...

- تماما .. بالضبط .. لابد من الاستجابة لطلبات عامرو تنفيذها بحذافيرها ...

لكنه على الإطلاق لم يحس الراحة والرضاء .. وإنما أغرقه تشاؤم لا يدرى مصدره أو هو يكابر لإقصاء مصدره من ذهنه .. وعندما ترك البيت لدى منتصف الليل .. وتوغل فى الشارع

الجانبى يجول على قدميه قليلا.. أيقن أنه إنما يغادر البيت بجسده فقط .. أما روحه .. ومشاعره .. فإنما هى الباقية هناك إلى جوار صاحبه المسجى لحما مضعضع الحركة .. وفكرا مقيدا بقيود فقد الحواس وجمود أوتار الصوت ...

وزفر الطبيب خلال سيره إنه كطبيب وصديق يتأرجح حقا بين رغبتين كانتا هما مرة .. عدم إجابة عامر لمطالبه وحينئذ فنسبة إنقاذ حياته قد لا تتعدى واحداً أو اثنين فى المائة.. واما إجابته لمطالبه وعندئذ فقد يتوصل عامر لتحقيق معجزة من نوع ما .. مغرق فى غرابته وشذوذه .. ولو كلفه الأمر حياته ...

• • •

لدى عصر اليوم التالى فتح باب الحديقة الخلفى .. وتم تفريغ حموله سيارة من الطوب الأحمر المعصرانى .. رصت إلى جوارها ست شكاير من الأسمنت الحديدى .. فى حين قبع أمامها هرم غير متساو من الرمال الناعمة . . . ومع ابتعاد السيارة الضخمة المتربة وانصراف العربة الكارو والعمال كالحى الوجوه .. لم يتبق غير الصمت .. وغير عدد من الأعين راحت ترقب المشهد من أوله وحتى انتهائه باستخفاف ورثاء كبيرين !...

• • •

اما الطبيب المقطب الجبين .. الزائغ النظرات ... وقد حمل هموم البشرية على كتفيه .. فقد دلف إلى حيث جثمان صديقه فى الحجرة التى بات يعرف كل شبر بأنحائها .. كان متعبا .. متوجسا .. يجر قدميه جرا .. فلما ألقى جسده على الكرسى المقابل للمنضدة والتى تضم أدواته والعديد من كتبه وأدويته كان أول ما وقع عليه بصره قلمه .... لمحه يتكىء على جهاز قياس ضغط الدم بكامل قوامه الأملس القشيب .. مزهوا .. متعاليا .. يتراقص على معدنه بريق الانتصار ...

وحين أمسك الطبيب قلمه انفلت مداعبا .. فلما شدد عليه قبضته وكتب به على مضض يعلن إلى صديقه وصول كافة أدوات البناء التى طلبها .. فإنه لم يتلق غير رد خافت أسكرته الفرحة .. ؟ « أحسنت .. أحسنت .. أشكرك » ...

• • •

وهناك فى الأغوار الدفينة .. فيما وراء أبعاد تختلط ثم تتشابك ويعمها التيه .. هناك تعالت الأنات المكلومة للمرة المليون ...

تعالت .. من قلب الحجر الأصم دون أن ينفلق .. من مركز الأرض ولم تنشطر .. من وسط الكون أو من جوانبه المترامية وسماواته الفسيحة ولم تهتز ولم تنطبق .....

«لقد بلغ ضعفى .. ثبوط عزيمتى .... منتهاه .. الظلمة والصمت المحيطان بأشلائى أبديا . سيؤديان بى إلى الجنون .. ورغم فرحتى الغامرة فيما

يشبه الحلم العصى بتمكنى من الاتصال بسيف الدين إلا أنها مجرد ثوان .. ومضة برق . . لمحة طرف . . وأعود إلى واقع القبر الذى يضم بقاياى النابضة . . الذى ينغلق على موحشا مرعبا . . وفى .. رغما عنى .. بصيص من حياة ......

إلا أنك لن تستسلم لليأس ياعامر..لن تلق سلاحك وأنت على مشارف عمل شاق وطويل . . وأنت على أعتاب نصر لم يبلغه سواك منذ أجيال وأجيال .....

ولن يوقفنك شىء مهما صعب . . مهما قسا وابتأس وأنذر بالفناء .. طالما لم تنطفىء الشعلة المضيئة بين حناياك » ...

« طوال الليل وأجزاء من المغرب وإلى ما بعد الفجر ...

انطلق قبس أثيرى يحوم فى تمزق وضياع حول بقعةمظلمة استقرت فيها كومة من قوالب الطوب وأخرى من الرمل تجاورهما بضع شيكارات من الأسمنت ...

وظل القبس الأثيرى يحوم فى إصرار مطلق .. كما تحوم الفراشة حول ضوء مصباح إلى أن تحترق ...

• • •

(٨)

• بفضل معاونته المخلصة استطعت تحديد الزمن المعربد خارج عالمى .. عاد لى إحساسى ولوجزئيا بالدقيقة والساعة واليوم .. ومن ثم أمكننى تنظيم وقتى واعتصار كل ثانية تمرق عبره ...

وتلاحقت مساعدات صديقى الطبيب .. متعددة .. متباينة .. ولعل أهمها كانت تلك المجموعة الجديدة المركزة من حقن المغادن والفيتامينات والتى أخذ يغز بها أنحاء بدنى بغرض اطراد تقويتى .. بعد أن نحوا عنى غذاء الجلكوز ...

ولا أدرى أى فكرة سيطرت على فرحت أصول وأجول بخيالى أتفحص حجرات البيت وممراته وملامح أثاثه .. لكن أين تراها تنزوى محسنة زوجتى وسط ذلك الزحام الذى مازلت أذكر بعضا من تفاصيله .. ولم لا أجدها تتردد على حجرتى .. ثم والأهم أين ابنتى صفاء .. لقد اشتقت لصوتها كثيرا .. لقد أخبرنى صديقى الطبيب أنهم أبعدوها إلى حيث تسكن جدتها .. أمى .. خيرا فعلوا ..

كذلك أخبرنى سيف الدين خلال محاولاتى تخاطبنا عن طريق قلمه أن صحة زوجتى قد ساءت من جراء هموم ما ألم بى .. لكن قواها كانت معتلة من قبل ذلك أيضا .. وبالذات خلال الشهرين الأخيرين قبيل الحادث .. ولعل تلك الحبات الوردية التى لمحتها مصادفة برف دولابها الأعلى كانت نوعا من الفيتامينات تتناولها فى خفية منى بغية عدم إزعاجى .. ولولا إسراعها بغلق الدولاب وانشغالى بموعد وصول الطائرة التى تقلنى والدتها لدى مقدمها من الجزائر لسألتها عن نوع الحبات الوردية .. ولربما كنت بما لى من خبرة اخترت لها نوعا أكثر فعالية .. أو كنت .. أشرت ... عليها ..... آه .. آه ....

إنها نفس الآلام المبرحة تعاودنى بين الحين والحين .. تهاجمنى على غير توقع .. تجتاح أضلع صدرى وظهرى .. إلى كتفى .. لتستقر فى شرايين عنقى ...

- آه ... آه ... آه ..... ألم أقل لسيف الدين .....

لقد فقدت طريق الشفاء ولن ألقاه إطلاقا .. لن أنعم به فى تحقيق معجزتى الكبرى .....

يقولون .. يقول الطبيب .. ان حروق جسدى الخطيرة فى طريقها إلى الشفاء .. وأننى قد اجتزت مرحلة الصدمة .. مرحلة الحرج الشديد .. إلا أنى رغم تأكيده ، أحس المبالغة فيما يقول .. وإلا ماحاول تثبيط عزيمتى وإبعادى عن محاولتى الكبرى .. عن المعجزة

التى لم يتوفر مناخ منذ مئات السنين مثلما يتوفر لى لتحقيقها ...

رباه ... فهل أوفق فعلا ؟

هل أنجح مثلما نجح أجدادى عبر تاريخ البشرية القديم ؟

هل أتوصل للسر الأعظم الذى أفقدنا إياه تعاقب المدنيات المغرقة فى ماديتها .. البالغة حد التشبع فى آليتها .. فلا يعيش إنسان اليوم وسط غابة من أبراجه الحديدية وعمائره المعدنية وعدده ومنشآته الشاهقة السامقة .. وفى قلب محيط من أقمار السماء الصناعية .. والكترون الأرض المذهل .. وموجات اللاسلكى التى تتقاذفها هوائيات العالم فى إيقاع واحد وزمن واحد ...

ولقد مر على رقدتى فى فراشى . . على تكومى وتقيد خارجى المحترق بطبقات من الضمادات وتقيد داخلى بفقد كل اتصال لى بالآخرين .. قد مر أربعة وأربعون يوما .. أو هكذا حددها الطبيب بالرجوع إلى مفكرته ...

فما الذى قطعته من الشوط فى مسيرة محاولتى الكبرى ..... ؟

فى المبدأ فقد رحت أتلمس ببطء وهدوء أماكن القوى الحيوية الكامنة او الهاجعة فى أعماقى .. وحسب مااخترته من عديد ماقرأت وناقشت فهذه الأماكن أو البؤرات الخفية هى مصدر إفراز لشحنات الجسد الأثانى العالية الذبذبة أو التذبذب .. وفى تفسير آخر هى ما ينبثق عنها من مجالات استاتيكية كهربائية . وغصت أبحث عن مزيد .. وفى تقديرى أنه يتيسر إطلاق هذه الشحنات العالية

الذبذبة من جسدى .. آه .. عن طريق تحرير العقل من عالمه المادى .. بتخليصه من ارتباطه الجسدى ببقية ما يتصل به من خلايا وأعصاب وعظام .. ولا يتم ذلك جميعه إلا من خلال عملية تركيز عقلى عميق ...

وهنا يحدث التحول لمجالات العقل المفكر .. تتمدد .. وتتسع .. وتتشعب .. وبعيدا عن نطاق المجال المادى النفسى يلحق الاتصال نقاطا أبعد .. وأكثر توغلا ونأيا .. عن إطار قيدنا المحدد بأبعاد أجسادنا ...

ومع انطلاق الطاقة غير المادية من أعماقنا .. ثم اتحادها مع أثيرية الكون الأبدى .. عندئذ تحدث .. التحولات الكبرى .. فى الجسد الإنسانى .. عندئذ تتداعى الأبواب المغلقة منذ الأبد الضارب فى القدم .. باب وراء باب .. كاشفة عن مكنون أسرارها العظمى .....

وحتى الآن .. بعد مرور أربعة وأربعين يوما وبضع ساعات .. لقد لحق كافة محاولات فى مجال بلوغ مكنون هذه الاسرار اخفاق مر .. قاس .. قاس .. أعقبه انهيار وردة سريعة فى قواى وفى حالتى الصحية عموما والمعنوية بصفة خاصة .....

• • •

كانت أضواء الداخل تتسلل إلى الشرفة لتضىء جانبا منها ..

لكنه قبع فى الجزء المعتم يعبث فى فص خاتمه الحامل لوجه الأسد وهو ينتظر مجيئها وقد نفد صبره عن آخره...

ورغم الظلمة المطوقة أنحاء الحديقة فقد استطاع أن يميز أدوات البناء تتكوم نشازا صارخا فى ذلك الركن المعرى من مؤخرتها.. وازداد شعوره بالحقد تجاه كومة اللحم المشوهة التى تأبى إلا أن تتشبث بالحياة لمزيد من الأيام . . مشعلة فى صدره مزيدا من الضغوط والأوجاع ...

وجاءه صوتها خائفا مذنبا ...

— ماذا تريد .. عجل ...

التفت إليها : ألهذا الحد وصل ضجرك وتأففك .. على أنه تمالك نفسه .. ليكن .. فقد قارب الصراع أن يبلغ منتهاه...

— ادخل فى الموضوع مباشرة يا حماد ...

تدلى فكه ... قبض على ذراعها بأصابع باردة ...

— إنما قصدت أن أطلعك على كلمات خطيرة تفوه بها ذلك الطبيب .. صديقه .. وتحمل بشرى رائعة لنا...

امتقع وجهها بينما تحملق فيه بتحفز : أى كلام تعنيه ؟

— إن زوجك .. لن يتحمل انتكاسة أخرى مثل التى منى بها صباح اليوم ...

— ياإلهى ...

كرر فى صفاقه : لقد أنقذ من هذه الضربة .. فإذا لحقته الثانية فمحال أن ينجو منها .. ستكون القاضية ...

شابت نبراتها رنة فزع حاولت أن تسيطر عليها ...

- وما دخلى أنا ....

قاطعها وقد زاد من إحكام قبضته حول ذراعها ...

- آه .. نطقتها .. ما دخلك .... فأنت تعرفين الدور الملقى على عاتقك لكنك بتفكير طفلة تهربين ...

- أرجوك .. أفصح .....

- لابد أن تستمرى فى أداء دورك لمنتهاه ...

- ما الذى تنشده بالضبط ؟

تكلم فى لهجة آمرة : يتحتم حثه .. بل دفعه دفعا .. للاستمرار فى تجربته .. فى حماقته . . نعبته الرعناء المسفة .... حتى يقضى بنفسه على نفسه ...

شملت الرعدة كل بدنها .. نجحت فى اقتلاع ذراعها من قبضته والارتماء على حاجز الشرفة فى انهيار كامل ...

- قلت لك أكثر من مرة .. لم يعد فى مقدورى الاقتراب من فراشه وحدى . . انى . . انى . . أخافه .. انه رغم كمونه وسكون حركته . . رغم عدم إمكانه رؤياى وسماع صوتى .. أحسه يرقبنى مراقبة صارمة ...

– هراء .. كل الذى تذكرينه مصدره خيالك وحده ...

أطلقت زفرة طويلة حارة ! على أى الحالات فانى أتوجس مما ينتوى فعله .. فهل سمع أحد من قبل عن بناء يشيد دون أن يقترب منه آدمى .. لا .. لا .. هناك شىء غير طبيعى فى الموضوع برمته ...

ضحك ابن خالتها فى سخرية ! بل قولى هى لوثة أصابت عقله بعد الذى أصاب أو دمر بدنه ...

تمتمت : تجربتى معه العمق فى التفكير .. والدقة والاتزان فى التصرفات ...

نهرها غاضبا : ليكن الذى تذكرين . . أو غيره .. المهم أن تكملى المشوار ...

هتفت وهى تغطى وجهها بيديها وتهم بالفرار إلى الداخل : لا أستطيع .. لا أستطيع ...

بسرعة بدل من كساء ملامحه .. مد يده إليها .. أوقفها فى رفق .. مال عليها .. بطرف أصبعه رتب خصلة شعر تدلت على جبينها .. بينما يتوخى الرقة والحنان فى نبرات صوته ...

– عهدى بك قوية .. متمالكة لأعصابك ...

– ليس دائما ...

– بل انت قادرة على اجتياز كافة الصعاب .. لذا سأعطيك

فرصة .. للغد .. لتعيدى ترتيب أفكارك .. لا لا .. أرجوك .. لا أريد كلمة قاطعة قبل الغد ...

وسكت . وسكتت .. وشغل تفكيرهما بأمور جد خطيرة . . وجد ملحة .. كان بناء الجدار المرتقب واحداً من أولها .. وواحداً من أبعدها ....

لكن فيما وراء حدود الحجرات.. والمنزل .. فى الجزء الخلفى من الحديقة .. قبع فى هدوء مريب .. الطوب وبقية أدوات البناء .. دون أن يصيبهم أى تغير .. أو تبديل .. أو أية إضافة ...

* * *

(٩)

« خلال واحدة من محاولاتى المستميتة لتركيز عقلى وشحذ أقصى طاقاته .. انبعثت أمامى بغتة حادثة قديمة لا تزال تبهرنى وقائعها كلما تذكرتها ...

فمنذ أكثر من ثلاثين عاما .. وكانت سنى لا تتعدى الثامنة.. أيقظنى أبى ذات يوم مبكرا على غير عادته وكان بادى القلق والاضطراب ..ودون أن يتناول إفطاره حملتنا سيارة جيب كالحة الطلاء انطلقت بنا جنوبا من مدينة حلوان حيث تسكن إلى بلدتنا الأصلية غمازة الكبرى وتقع فى منتصف المسافة بين حلوان والصف..وكنت معتادا الطريق لكثرة مرافقتى أسفار أبى إلى هناك..لكننا فى ذلك اليوم إن لم تخنى الذاكرة لم ندخل الصف إنما لدهشتى وجدت سيارة الجيب تنحرف بنا لدى مشارفها لتأخذ اتجاها جديدا يصعد بنا إلى الجبل الشرقى رأسا...وسرعان ما احتوتنا على الجانبين جدران صخرية شاهقة العلو .. فلما سألت أبى عن

اتجاهنا لم يجبنى .. كان وجهه جامدا .. وفمه مزموما..وأصابعه تتنقل بين حبات مسبحته فى آلية ...

إلا أن السائق أسعفنى بكلمة مقتضبة : وادى الوراق . .

وفى نهاية طريق مترب امتد نحو عشرين كيلو مترا توقفت السيارة الجيب أسفل منحدر صخرى .. وعبر سلمات نحتت بوسيلة بدائية استمر صعودنا قرابةربع الساعةلنبلغ فى آخرها نتوءاً يصل علوه قمة بناية من عشرين طابقا . . ولفحنا هواء بارد رغم سخونة الوادى بأسفل .. كما احتوتنا رائحة بخور قوية من كل جانب ...

بغتة وقع بصرى على قامته القصيرة .. تسد بالكاد جزءا من فوهة غار متسع نحتته يد إنسان . . بدا قزما بالغ النحول بالغ بياض البشرة .. وانحنى أبى يسلم على اليد الممدودة فى تبجل وشغف.. ولكزنى لأنحنى بدورى مرضما وأقبلها ....

ولازلت لساعتى أتذكرملامح الشيخ النجيدى جيدا .. يابسة معروقة شعثاء .. لكنهاتنطق بالطيبةوالصفاء.. وأيضا بالغموض.. فى حين تدلت تحت فمه المنعدم الشفاه لحية فى نصوع بشرته وطول جلبابه القطنى الخشن... ولا أدرى ما الذى كان يقصده أبى من لقائه بالشيخ ولا زلت أجهل النتيجة التى ولابد ترتبت على اللقاء فيما بعد ..لكن الشىء المخيف.. بل المذهل الخارق لدرجة

الرهبة . . وأنا أعيه بتفاصيله .. محفورا . . غائرا فى مخيلتى .. هو ما تتالى بعد ذلك ....

فى المبدأ مال الشيخ على أبى وتهامسا نحو دقائق خمس .. بعدئذ اعتدل..اتخذ وضع القرفصاء فى جلسته فوق الحصير المطموس الرسومات .. ثنى ذراعه اليمنى تجاه صدره.. فذراعه اليسرى تجاه رأسه..وزفر مرتين..ثم سحبته استغراقة عميقة بينما يرتل نوعا من الأدعية المبهمة استمرت ما يزيد على الساعة.. أو هكذا خيل إلى وقتذاك ...

وفى النهاية ما الذى حدث ؟

بينما الشيخ النجيدى فى وضع القرفصاء .. وقد أغلق عينيه وأرخى رأسه بعنقه نحو صدره .. وأصابع يديه تكاد تتيبس حول ركبتيه .. وصوته يتعالى فحيحا او حشرجة .. أو همسا منغما ..

إذا به .. فى ليونة ويسر كاملين .. وبلا صوت أو أرجحة أو تغيير لوضعه إطلاقا ...

إذا بالشيخ النجيدى يأخذ فى الارتفاع عن الحصير ببطء واتزان تجاه سقف الغار .. وكأن قوة غير منظورة تشده فى هوادة .. أو كأنه بطريقة ما قد تغلب على الجاذبية الأرضية وراح يتهادى إلى الأعالى ...

ولدى ارتفاع نحو متر ونصف ثبت جسد الشيخ وحيدا معلقا فى الفضاء ...

للحظات لم أصدق ما أراه .. حتى تبينت الشيخ يفتح عينيه ويشير إلى أبى بالاقتراب منه .. فلما حاذاه واقفا مد النجيدى يده وربت على وجه أبى سبع مرات أو تسعا .. ثم أبعده ليهبط أخيرا والعرق يغرق وجهه وسائر بدنه بدرجة لم أر لها مثيلا.. وكانت هذه نهاية ساعتين قضيناها بغار الشيخ الناسك الرابض فى قلب الجبل .. عدنا بعدها إلى منزلنا بحلوان وقد لاحظت نوعا من الراحة النفسية والسكينة يحلان على أبى ولم أرهما عليه بمثل هذا العمق من قبل ...

والآن وأنا أستعيد الذكرى الحية رغم بعدها .. فهل أقدر على بلوغ ما بلغه ذلك الشيخ المهيب من تمكن وتحكم خارقين .. هل أصل إلى نفس أسراره أو ألغازة العظمى ... فإن كان الشيخ النجيدى قد عزف ونأى عن الخلق والخلائق وكافة متع الدنيا .. إن كان قد هجر العمران بكل ما تحمله الكلمة من بريق وحركة وضوضاء واعتكف حبيس الغار . . فانى بدورى .. قد بت مؤخرا حبيس غار أكثر ظلمة ووحشة .. غار يبعد عن الدنيا بأسرها بملايين لا نهاية لها من الأميال .. من الزمن الأزلى المترامى إلى أطراف الكون السحيقة ...

ومن الماضى يتردد صوت أبى « ان فعلة الشيخ محصلة سنين طويلة من إيمان مطلق . . وصبر وجلد راسخين .. ثم وقدة من شجاعة نادرة .. فيشتعل العقل بأقصى طاقاته وقدراتها .. محرر

الإرادة .. لتصبح دقائق موجية تنفذ فى الأثير .. إلى بعيد . . إلى بعيد .. إلى الأقاصى ..... وعندئذ فلا تسألنى عما فى مقدور الشخص أن يفعل » ...

وهكذا تتجدد وقدة الأمل فى صدرى .. بين ضلوعى .. فأطلق العنان لمحاولاتى ...

وأتعمق أكثر وأكثر .. وأركز وأعتصر لأقصى ما لدى من جهد . . . . إن وعينا . . تألق فكرنا . . الذى تمتد علاقته بالجسد إلى جزئياته . . أدق جزئياته . . يمكنه أيضا أن يؤثر فى الجزئيات الموجودة خارج حدود هذا الجسد .. كأن نحرك الأشياء دون لمسها .. وبدون استخدام لأية أدوات من أى نوع ...

وقد حركت القلم فى يد صديقى الطبيب عن بعد .. فكتب بوعى وإرادة منى ...

فهل أستطيع تحريك الطوب ......

وخلط المون .. ثم بناء الجدار الذى أحلم به .. وأنا على عجزى هذا .. وأنا على حالتى الفريدة .. من نأى فى طرف المعمورة...

ولم لا . . لم أتوقع التعثر والفشل . . دون غيرهما .. ان البرهان لايزال واضحا ثابتا .. على أن وراء الأبعاد المعروفة للزمان والمكان عالما آخر له ظواهره وطاقاته الخاصة به .. وهو عالم يتفاعل طول الوقت مع عالمنا المعروف ويؤدى وظائفه بأفعال بسيطة ميسرة . . كأن يعتزم المرء مثلا إغلاق عينيه

فيخلقها .... فإذا استطاع إدراكنا أن ينشئ علاقة متساوية لهذه العلاقة مع المادة .. الكائنة خارج حدود أجسادنا . : بعيدا .. لأمكننا أن نحرك هذه المادة كذلك . . باختيارنا . . وإرادتنا ...

ولعل من أصعب النماذج لتحريك المادة عن بعد هو ما اعتزمت أن أخوضه .. ما قررت أن أقتحم مجاله ...

وأنا مصمم .. ومصر .. على المضى لتحقيقه مهما كانت النتائج ...

* * *

ــ والآن .. هل فكرت فى الأمر ؟

أعادت الشوكة بقطعة اللحم إلى طبقها والتفتت إليه محتدة ...

ــ والدتى لم تغادر الحجرة بعد ...

عمه الاستياء : إنها لا تسمعنا .. على أنه خفض صوته أكثر .. إن كل تأخير ليس فى صالحنا ...

رنت إليه بعينين تائهتين ووجه مزرق .. تسللت كلماتها متعثرة تحدث نفسها قبل أن تقصده هو بحديثها ...

ــ تكفينى المرة الواحدة بكل هولها .. ومن المبدأ فقد أكدت لك .. لن أعيد الكرة .. محال .. محال ...

ــ أهذا قرار نهائى ؟

ــ نهائى ...

عندئذ لم يجد ابن الخالة حماد الألفى مناصا من أن يشيعها بنظرة

طويلة مغتاظة .. فى حين دمدمت كلمات من بين أسنانه المغلقة ...

– لم يبق إلا أن أتصرف أنا ...

* * *

انتهز فرصة غياب الطبيب ليتسلل كما يتسلل الهر إلى الحجرة الساكنة المعتمة إلا من ضوء (أباجورة) مسلطة على الحائط...

فى هدوء أغلق الباب خلفه ...

وفى ثقة خطى نحو المنضدة وجلس على كرسيها ...

ثم راح يتطلع متفحصا تجاه الفراش وعليه كتلة أوكومة اللحم والضمادات .. انها لا تزال هاجعة .. مستكينة بلا حراك .. كما دأب أن يلمحها أثناء مروره من أمام الباب .. فقط قد قلت كمية الضمادات.. وبانت رقاع داكنة مكان ما نزع من شاش وقطن وأشرطة لاصقة .. مجرد رقاع بنية أو خضراء أو مختلطة الألوان لكن بلاملامح .. وتشمم الهواء .. حتى رائحة أدوية الحروق ودهاناتها النفاذة قد خفت حدتها .. والأغطية أيضا .. أصبحت أقل كثافة .. وأقل أو هى غير محكمة ...

لكن أين هى معالم كومة اللحم.. أين أولها من آخرها ؟

الفراش ملتصق بمنتصف الحائط المقابل ولا وسادة عليه تميز مقدمته من مؤخرته . . وحتى كومة اللحم نفسها فهى مموهة غير متضحة الطرفين.. فى أى اتجاه توجد الرأس وفى أى تستقر

القدمان .. لكنه بمزيد من التحديق.. ومزيد من تضييق الحدقتين وتركيزهما .. عاد فتبين طرف الصلعة المسودة البارزة وسط دائرة شاش أبيض .. على يساره ...

هكذا .... هذه إذاً كل بقايا عامر صابر ...

بقايا لا حول لها ولا قوة.. بل انها حتى لا تستطيع أن تلم بوجوده .. قربا أو بعدا .. رؤية أو سماعا ...

وتملك حماد الزهو لتفوقه على غريمه ...

وسيطر عليه شعور طاغ بالاستخفاف .. فأطلق ضحكة تحمل من السخرية أضعاف ما تحمله من مرارة ... لكنه أسرع يكبح مشاعره ولو ظاهريا .. واعتدل يأخذ مظهر الوقار والجدية.. ومد يده فأمسك قلما وجده وشرع يكتب فى تؤدة .....

« عامر .. عامر صابر....انتبه إلى .. انني حماد الألفي أجلس فى حجرتك .. وعلى منضدة تواجهك .. ولا تفاجأ بحضوري إليك .. ولا تندهش كثيرا لإصراري على مخاطبتك بعد أن طال الصمت من جانبي ...

فأنا منذ الحادثة التى ألمت بك إنما أتحين الفرصة فحسب وها قد سنحت أخيرا .. وسوف أخبرك حالا بما أبتغيه ....

بوضوح ودون مواراه .. وفى اختصار أيضا فالأمر لا يحتمل إطالة .. فإننى وزوجتك ابنة أخت أمى .....

أنا .. ومحسنة .. متحابان ....

قلت لك لا تفاجأ ولا تدع الدهشة تتملكك قبل أن أكمل حديثى... فقبل أن تنبث أنت شيطانيا فى حياتنا كنت وإياها على اتفاق تام بالزواج لكن مجيئك المباغت أفسد كل شىء بالنسبة لى .. ولها .. وللجميع ...

مجيئك بدد أحلامى وآمالى .. طمس معالم الغد الباسم الذى كنت أترقبه .. ومجيئك علمنى أيضا إحساسا لم أكن أعرفه قبلا .. علمنى الكراهية ... بالضبط .. لقد كرهتك وحقدت عليك وصممت على الانتقام منك .. بقتلك .. أنت الدخيل الغاصب لزوجتى المستقبلة والبيت الذى نشأت فيه ولعطف خالتى وزوجها اللذان آوياني بعد موت أبى ....

أتعرف .. ان انفجار معملك كان من تدبيرى .. أنا .. كان هو انتقامى ...

لقد استعدت حب ابنة خالتى . زوجتك .. هذه هى الحقيقة فلا تستغرب . . فان انشغالك بأبحاثك وتجاربك أوجد لديها الفراغ الذى أسرعت بملئه دونك وبعدئذ أحكمت قبضتى عليها .. حتى تيسر لى آخر الأمر استبدال الحبات الوردية التى تستعين بها فى تجاربك بأخرى تشبهها لكنها متفجرة .. وانفجر المعمل .. معملك .. اندلع فى وجهك وسائر بدنك .. وها هى النتيجة من صنعى فيما أنت عليه من حال هو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة .. أما رجال البوليس فلم يتوصلوا لشىء .. أليس عملك الأساسى

والفعل هو الكيمياء والمتفجرات بالذات؟؟ أجل يا عامر .. إنه الواقع بكافة حذافيره وتفاصيله ما أطلعك عليه .... فما الذى فى مقدورك أن تفعل بعد أن علمته ووعيته ...

وأكاد أنطق بلفظ .. آسف أقصد أكتب لفظ « مسكين » .. لكن لا .. فأنت فى واقع أمرك مغتصب تنال العقاب . . ولكن هل أذهلك ما سمعت منى . . هل أغضبك قولى .. ليكن .. بل إن ذهولك وغضبك وفيما بعد ثورتك وأنت على كل هذا العجز الذى يقيدك .. ليزيدنى فرحا وسعادة ...

بل يقينى أنك لن تحتمل سطورى حتى نهايتها ولن تقوى على فهم الحقيقة التى ولابد يقع كل حرف منها وقوع الصاعقة عليك .. ومن ثم فسوف يخمد بقية أنفاسك كمد ثقيل تجرعت مرارته أنا حماد الألفى يوما . بل أياما .. من جرائك » .. بغته أحس ابن الخالة بالإرهاق .. وأيقن أنه قد نفث آخر قطرة من سمه .. فكف عن الكتابة ...

على انه عاد فصنع من أصبعى يمناه السبابة والإبهام حلقة صغيرة ترك القلم وسطها طليقا حتى يتلقى ردا من كومة اللحم .. لكن كومة اللحم لم تعن بالرد أبدا ...

* * *

وفى الخارج .. فى الجزء الخلفى من الحديقة .. فإنه كذلك لم يرتفع فيه أى بناء من أى نوع .. ولو لسنتى واحد فوق سطح التربة ...

* * *

(١٠)

مد ذراعه بطولها . . اختطف القلم . . وما أن جلس حتى أمسك الورق وأطلق لغضبه العنان ...

ـ اسمع ياعامر .. لابد وأن توقف هذه البدعة الخطرة فورا..

بدا سن القلم صلبا جامحا وهو يحفر أحرفا رفيعة ...

« آسف .. لا يمكنني التراجع بعد الشوط الكبير الذي قطعت ».

ـ لو جاريتك فإنني أسوقك إلى الانتحار .. لذا . فمن اللحظة سأمنعك بكل الطرق ولن يهمني موقف حانق تتخذه مني .. أن هدفي نجاتك فحسب ....

أسرع القلم يجيب « وأيضا .. فإن أية محاولة لإيقافي .. لمنعي .. تقود في نفس الوقت لمقتلي .. بلا ريب.. كما ترى هما طريقان كلاهما مر .. لكني قد أحقق في الذي اخترت شيئا فريدا كما سبق وكررت »

هتف الطبيب وهو يطرق المنضدة بيسراه : يا إلهي كيف . ؟

ثم تذكر أن الآخر لا يسمعه فركز حنقه فى قبضته حول القلم ...

ـ ألا تقيم وزنا لمهنتى كطبيب ؟؟

انتفض القلم .. حاول التملص من القبضة التى تضغط على معدنه بعصبية .. ثم هدأ فانساب حانيا ...

« انى أنشد عون الصديق قبل عون الطبيب »

ـ الصديق لن يخالف الطبيب ...

كتب القلم بتؤدة واتزان يبلغان حد الحكمة « ولم لا يوضح الصديق فى بساطة الحقيقة التى يتجاهلها الطبيب مع علمه بدقائقها أكثر من الصديق . . لم لا يقول الصديق للطبيب إن النهاية واحدة .. معروفة وقريبة مهما سلك طريقا دون آخر .. وبعدئذ يستعطف الصديق الطبيب .. أن يدع للرجل فرصة .. أو قل .. أمل أو هو مطمح وحيد يتطلع إليه »

خفت حدة الانفعال لدى الطبيب .. كتب ...

ـ لكن قياس ضغط الدم لديك فى هبوط مستمر .... وهذا .. يعنى ....

انتقل القلم يعبر برأى عامر مقاطعا الطبيب « يعنى أن لكل شئ ثمنه .. وأنا مستعد لدفع الثمن عن طيب خاطر »

ويترك الطبيب القلم يائسا .. يلقيه ويشيح بوجهه بعيدا .. وقد أحس الاختناق .. أى حيرة تلفه وتطويه.. أى تخبط يغرقه إلى قمة رأسه ...

وفى الجانب الآخر من الحجرة.. حيث الفراش الذى لا تتغير معالمه . . وحيث كومة اللحم هاجعة دون أقل بادرة من حركة .. وكأنها هى والفراش والجدران الصماء قوام واحد ...

بينما فى أعماقها يتفجر الغليان .. بداخلها .. تتجمع طاقة لا حدود لجبروتها ...

« ما الذى استحوذت عليه مؤخرا.. ما الذى عثرت على مكمنه فى غور جمجمتى .. فى أعماق أعماق أعصابى..انه .. بماذا أصفه .. انه جوهر لايدخل فى صفات المادة .. قد يكون طاقة .. قد يكون شعاعا . . أوغالبا هو جهد كهربى ينبع من ذرى نفسى ...

لالالا .... بل موج مخى يشبه موجات الراديو المعروفة.. وها أنا ... على وهن الموج المخى وضعفه .. أستميت لزحزحته . أتكلف المضنى المرعب من الجهد لتحريكه ومن ثم إطلاقه ...

إنى كلما دفعت مجموعة منه خطوة للأمام اضمحلت قواى عشرات الخطى للوراء .. وامتد بى العمر .. أوغل ونأى مئات الأعوام كبرا وعتيا ...

إننى فى سبيل مزيد من الدفع .. من التدفق .. من التأنق الخلاق .. أشعر باحتراق خلاياى .. أشعر بتآكل روحى .. بانصهارها وتحولها إلى رماد .. أشعر بانطفاء قبس الحياة منى ... رباه....أعنى على البذل ..المزيد الخارف من البذل .. أعنى على بذل ما فوق طاقتى وحدود قدراتى .. أعنى على الوصول إلى المستحيل... »

• • •

بلا مقدمات ارتفع القلم وسقط على صفحة البلور محدثا رنة طفيفة لكنها كانت كافية لجذب انتباه الطبيب الذى أسرع بإمساكه .. ليعجل هذا بالكتابة فى لهجة جافة آمرة ...

« أبطل أى مصدر للكهرباء بالحجرة ... عجل .. عجل »

وأطفأ الطبيب ضوء الأباجورة وسحب اتصالها بالتيار كما سحب اتصال جهاز رسم القلب القابع على كرسى مجاور .. وأصبحت الحجرة معزولة عن اتصالات الكهرباء ...

عاد القلم يلح فى صلف « والآن غادر الحجرة »

تردد الطبيب والدهشة تعطل تفكيره ...

وكرر القلم فى صبر نافد « ألق القلم .. وغادر الحجرة »

انصاع الطبيب فغادر الحجرة وقد تحولت دهشته إلى شعور كامل بالاحباط والهزيمة ...

وأمام الباب المغلق أخذ الرجل يروح ويجىء وقد تملكه الغضب على صديقه وعلى نفسه وعلى كافة الموجودات حوله .. حتى الهواء الذى يتنفسه ...

وركل كلب البيت الكانيش أثناء عبوره من أمامه دون أن يدرى لفعلته سببا ...

كيف يذعن دون أعتراض ...

كيف يستسلم بلا مقاومة .. بلا نضال ...

بل انه يجهل سبب طرده .. يجهل سبب الغضبة التى تملكت عامرا فألقت به هو إلى خارج الحجرة ...

فإذا بدا الأمر غير لائق به كطبيب مسئول فهل يليق به كصديق مخلص متفان ...

واستبدت الهواجس بالطبيب ... حطت عليه أفكار شاذة وتنازعته مشاعر وتصورات بالغة القتامة ...

احتوته دوامة هائلة من الصراع النفسى ...

أحس وهو الحر الطليق بألم القيد الذى يرسف فيه بوجوده خارج الحجرة.. بجهله ما يدور فيها ..ومع مرور الوقت وإحكام الصمت زادت الوطأة عليه وتمكن منه إرهاق شديد . . فلم يجد بداً من وضع أذنه على ثقب الباب وإصاخة السمع عله يلتقط بصيصا من صوت لما يدور بالداخل ...

وفعلا أمسكت أذنه المرهفة مايشبه الشهقة..أو الصرخة .... خافتة لكنها وحشية ...

فهل تعالت من كومة اللحم التى تقطعت أوتار حنجرته.. هل كان عامر مصدرها ???

فى ثوان فتح الطبيب الباب وفى ثوان كان يقف على رأس الكومة المرتعدة . . وقد أقنعته النظرة الأولى أن عامرا يحتضر.. إنه يجتاز الثوانى الفاصلة بين الحياة والموت ...

عبث الطبيب برهة فى أدواته ومعداته الطبية .. ثم انطلق إلى الخارج محموما ...

– أين سماعتى الطبية .. وأين أسطوانة الأوكسيجين .. بحق الشيطان أين وضعتموها أو أخفيتموها ؟

وأجابت الزوجة المأخوذة من ثورة الطبيب ..

– لاعلم لى بمكان السماعة . . أما الأسطوانة فقد كانت مع حماد بالأمس ربما نفدت فأخذها ليستبدلها بأخرى ملآنة ...

صرخ الطبيب : بل هى جديدة . . استبدلتها بنفسى أول الأمس .... والآن أين هو حماد ؟

ردت الزوجة : لم أره منذ الصباح ....

وقالت الأم التى أقبلت بدورها مشوشة الهندام ...

– بل قابلته أنا منذ دقائق يغادر حجرته بالطابق الأرضى .. كان يندفع مهرولا إلى الخارج .. وأظننى لمحت وجهه يكسوه الانزعاج ...

أشار الطبيب للزوجة بأصبعه بينما نبراته الجافة تلوى فى لهجة... سليطة ...

– ربما وجدته بالشرفة . . أو فى الحديقة أسفل التكعيبة .. ناديه وأحضريه إلى فى الحال ...

وحين عاد الطبيب إلى موقعه بحجرة صديقه . . ومد كفه

إلى كومة اللحم :.فإن أول ما صدمه كانت البرودة التى شاعت فى أنحائها... ثم سرعان ما أقنعته اختباراته المتلاحقة الدقيقة أن خمس دقائق وربما ست قد مرت على صعود روح عامر إلى الأعالى .. إلى خالقها الأوحد ...

لم تكن صدمة التى اعترضته .. فقد كان يتوقع هذه النهاية .. وينتظرها .. ومع ذلك فإن شعوراعميقا بالأسى والضياع شمله واستقر غصة تلهب منتصف صدره ...

كان سباقا محموما مريرا بينه وبين الموت . . وقد خسر هو السباق . . وخسر معه أعز صديق شاركه عمره . . . وانسحب سيف الدين من الحجرة كاسف البال مطأطىء الرأس . . وهبط إلى الطابق الأرضى وهو يجر قدميه جرا ... فقابلته الأم لدى نهاية السلم .. تلقفته بكلماتها اللاهثة الممطوطة ...

— ماهنا لك . . ما الذى يدور بأعلى .. لاتتركه وحده .. عد أنت إليه أما ابنتى فسوف تعثرعلى حماد وتحضره إليك ...

لم يعن بالنظر إليها : لقد انتهى كل شىء ...

— ماذا ؟

— لقد .. رحل ...

وترك الأم تستوعب النبأ بتفكيرها البطىء دون أن يضيف مزيدا . . وتسلل عبر المدخل الرئيسى إلى الشرفة السفلى المفتوحة

بسلالمها الثمانية على الحديقة مباشرة . . وقابله جسد الزوجة مجمداً مستندا إلى عمود رخامى سميك فهمس لها فى صوت مختنق ...

– تقبلى عزائى يا سيدتى ...

لم تتكلم فعاود سحب نبراته وإطلاقها برغمها ...

– قد رحل عامر عنا ...

لكن الصمت قبالته ظل ثقيلا كثيفا ...

رفع رأسه إليها .. لحظها بوضوح أكثر ...

بدت مسمرة متكورة أو ملتصقة بعمود الرخام . . فى حين برزت عيناها ومن وسطها محجريها . . فى نظرة هلع لم يرها على وجه إنسان فى حياته ...

– يا سيده محسنة ؟

لم تكن تسمعه بالمرة .. أما بصرها فقد ثبت على اتجاهه يشله رعب مغناطيسى سيطر عليها فى يقظتها ...

وتتبع ببصره اتجاه عينيها ...

تابع إلى أن تسمر بدوره ...

– يا إلهى ... يا إلهى .....

فى الجزء الخلفى من الحديقة .. حيث وضع الطوب ومواد البناء

منذ أيام .. فى المنطقة المعراة المجاورة للجراج ....

.. انه يشاهد الآن .. اللحظة .. بكلتا عينيه .. جدارا سميكا قد استقام فى نفس الموقع على أكمل ما يكون البناء .. رشيقا منسقا منضبط الجوانب والزوايا ...

وقاسه على بعد .. إنه يرتفع بارتفاع قامة الرجل ويعرض بعرض قامتين .. ويمتد إلى نحو عشرين قامة معتدلة متجاورة .. ولم يصدق الطبيب ما يشاهد ...

هبط السلمات الباقية إلى الحديقة ...

تقدم مشدودا مشدوها ...

وقد نسى كومة اللحم .. ونسى الزوجة .. ونسى كافة ماعدا هذا البناء الأسطورى البالغ حد الجمال والروعة .. هل حقا قد نجح عامر صابر أخيرا فشيد باقتدار منه .. بطاقة عارمة بعثها من كيانه .. هذا الجدار النموذجى ...

هل .. استطاع ذلك فعلا ...

ولم الشك .. لقد أطل هو من الشرفة منذ ساعة فلم ير غير مواد البناء .. أجل .. لم يكن هناك غير أكوامها .. وبناء كهذا .. جدار مكتمل الأركان مصقول البياض .. محال أن يستقيم فى أقل من ساعات ثمان وليس ساعة واحدة ...

واقترب أكثر .. وأكثر ...

ومد يده فى وجل يمر بأصابعه على الوجه الأملس الحانى فى نعومة سطح الزجاج .. كم هو رائق .. صلب .. متناه فى استقامته وثباته ...

بغتة سحب يده .. كور قبضته ملسوعاً مصعوقا...

ما هذا ....

هناك فى الطرف البعيد من الجدار اتضح جسم شاذ .. ما .. يشبه عوداً يابسا برز من أعلاه ...

لا .. معلق .. معلق... يا للبشاعة ...

انها يد بشرية.. بأصابعها الخمسة .. مسودة متيبسة .. بل متحجرة . . قد برزت فى حين اختفى بقية ما يتصل بها من ذراع وبدن داخل الجدار .. فى أعماقه .. أو هكذا لابد أن يكون ... وحقق الطبيب نظرة إلى منتهاه فقد غربت الشمس منذ ثوان فقل الضوء ...

واستطاع أن يميز شيئا ...

وجها باهتا مصفرا يلتف حول الإصبع الأوسط لليد المتحجرة ...

وكان وجها عابسا لأسد عجوز ...

تمت

الفهرس

الصفحة

كتب المؤلف

قاهر الزمن (رواية)

روايات الهلال ـ دار الهلال ١٩٧٢

رقم ٤ يأمركم (مجموعة قصص)

كتاب اليوم ـ دار أخبار اليوم ١٩٧٤

سكان العالم الثانى (رواية)

مطبعة الأمانة ١٩٧٧

الماسات الزيتونية (مجموعة قصص)

اقرأ ـ دار المعارف ١٩٧٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨١/٣٧٥٤

ISBN ٩٧٧ ٧٣٤٥ ٧٤ ٧

مطابع الهيئة المصرية

٨٠ قرشا